نيل الارب

فى مقـــالات ومواعظ القديس يوحنا فم الذهب

(المقـــــالة الأولى)

لرد الوثنيين فى أن المسيح هو اله لم يزل منذ الأزل

مقـــــدمة

اذ كان الاكثرون من الناس · بعضهم يوجـــدون مرتطين من ذواتهم وبعضهم قـد اسلموا انفسهم الى الأشـغال العـــالية بحـرص كثير منهم وغير هؤلاء قـد استحوذ الجهـل عليهم وفقـد العـلم منهم فمـــا يتيسر اجتـذابهم بأقـوال طويلة تخلصهم · لذا رأيت انه لا يلزمنى اضطرارا أن أطيل الـكلام بل انتزع غبـاوتهم بسهولة ايجاز الـكلام ، وقلت أنى أجتذب من تهـور منهم فى كسـله كثيرا الى قـراءة ما وضـعناه بأوفـر نشاط ولهـذا الغـرض لا ازين كلمـاتى وأجملهـا بالفـاظ واسـماء تحسنها لكنى اضعها وضعا يسهل فهمه من الغلام والجارية والتاجر والذوتى · والفـــلاح والمراة الأرملة فاصـل من سـائر الجهات الى افهـامهم واقتصر بحسب طاقتى تطـويل معانيها فانهض من جمـــاعة السامعين الغافلين ارتيـــاحهم الى أن يستفيـدوا بأيسر مرام خلوا من كل تعب ويضـــعوه فى حاسة الذكر منهم وأعتمد بجهدى فى ذلك أولاك الوثنيين لانه متى ما قال لنـا واحد منهم من أين يكون واضـحا أن المسيح كان ولم يزل الهـــا نحتـاج أن نصـلح هـذا المطلوب أولا ونتبعـه بالدلائل · فينبغى أن ننشىء البرهان على ذلك ليس من السماء ولا من البرايا الاخرى وامثالهـــا لأننى ان قلت له أن المسـيح أبـدع السـماء والأرض والبحر فليس يقبـل قـولى لأنه ما يصـدقه وان قلت له انه قـد أقام أمواتا وفتح أعين العميان وطرد شياطين · ما يقبل هذا القول وان قلت له ـد وعدنا ملكا ونعمـا صالحة يصعب علينا وصفها فلا يرفض ذلك فقط بل ويضحك على كلامى وينكره · فمن اين أستميله الى الايمان ولا سيما ان كان غبيا متعنتـا · فلا يمكن ان أستميله الى القبـول منى الا من الدلائل التى نعتـــرف انا وهـــو بحقيتها اعترافا مشتركا قد عـــدم مناقضة فلا يمكن أن يشك فيهـــا ·

القسم الاول

فى أن سرعة انتشار دين المسيح دليل على الوهيته

ولعمرى ان تحقيقى له أن المسيح أبدع السماء والبزايا الاخر كلهـا والآيات التى وصفناها • ليس يتيله ولا يوقن به فان سألت فما هى الحجج التى يعترف هو بها • والافعـال التى ما ينكر أن المسيح فعلها أجبتك هى أن شجرة المسيحية غرس المسيح نفسه لانه ما يتردد فى هذا المعنى ولا ينكر أن المسيح نصب كنائسـه فى كل موضـع من المسكونة • من هـذا الشىء نخترع البرهان على قـدرته ونريه أن المسـيح لـم يزل الها ونقول له لا سبيل لانسان ساذج ان يشتمل فى مدى قصير • على هذا المقدار الواسع من الدنيا • الا بقوة سامية لا يمكن تصورها فانه قد عتق جنس الناس من عبادة شنيعة • قد تقـدم استحواذهـا عليهم • ومن رذيلة جزيل تدبيرها وقد تمكنت منهم • قد جذب اليه ليس الروم وحدهم • بل وبلاد فارس وجميع الأمم ايضا على ما قد شـاع به الوصف وللوصول الى هذه الأمم المتفرقة لم يستعمل اسلحـة • ولا انفق الدوالا • ولا سير جيوشا ولا اثار حـروبا لكن اقتادهـا الى طاعتـه • بأناس خالين من العـلم أميين فقراء عراة مجردين من أسلحـة وحفاة ملتحفين بثوب واحد • واستمال بهم قبائل من الناس جـزيل عددها وليس فى ديانتـه ذكر نعم حاضرة يملكونها • بل وصف نعـم متوقعـة يؤملونها • واقتلع شرائع آبائهم بما فيها من عادات عتيقة قـد الفوها • وقـد تأصلت فى زمان هذا مقداره فأبطل تمكنها واقتلعهـا وغرس عوضها شرائعه وفرائضه • التى نقلتهم من حياة كلها سـهولة الى حياة تتبين صعبة • وهذا التغيير قد أجراه المسيح فى تابعيه بعـد ما احتمل صليبه بما فيه من تغيير لأن تلاميذه ما انكروا أن اليهـود صلبوه • وانه قاسى منهم المكاره الجزيل عـددها • وقـد انبثت المنـادأة به كل يوم ليس فى هـذه الأماكن وحـدها • لـكنها قد ازهرت فى كل مكان حيث كانت تحارب وبهذا النداء آمن الوف هنأ وأقربه الذين كانوا وفر وحشية من الأسود • وصاروا اكثر ائتناسـا من الغنم يتفلسفون فى زوال الحيـاة وفى المـوت • وفى القيامة العتيدة وفى النعم المتعذر وصفها ، وهـذه المحامد ما انبثت فى المـدن فقط • ولـكنها قـد خـرجت الى البرارى معها وفى الضياع والى البـلدان والى الجـزائر • والى الموانىء والشواطىء وقد خضع للمصلوب ليس أغنياء النـاس ورؤساؤهم

وحسدهم . لكن قد خضع له معهم بأمانة كثيرة الملوك بأعيانهم . الموضوع عليهم تيجانهم .

القسم الثانى

شهادة كتب اليهود (التوراة)

والدليل علي ذلك أن هذه الأقعال كلها ما كانت على بسيط ذاتها ولكنها قد ذكرت بنبوات كافية قبل زمان طويل . وحتى لا يكون كلامنا متهما يستبين اذا أحضرنا الكتب من عند اليهود الذين صلبوه وقرأنا الشهادات التى تبين أنه لم يزل الاها . وسيظهر فى شبه الناس . قال ارميا النبى « هذا الاهنا ما نحسب لنا الاها آخر غيره اخترع كل طريق العلم وخولها يعقوب فتاه واسرائيل المحبوب منه . وبعد ذلك على الأرض ظهر ومع الناس تصرف (باروخ ٣ : ٣٨) أعرفت كيف اوضح امر المسيح بألفاظ يسيرة . انه كان الها فتأنس . واذ تأنس اعتزم ان يتصرف مع الناس ويبين انه هو الذى اشترع الشريعة الحقيقية . لانه قال اخترع كل طريق العلم وخولها يعقوب فتاه . واسرائيل المحبوب منه . فاوضح انه قبل حضوره دبر كل مابه اقتادنا، وهو كل مابه خلصنا ، مشرعا شريعته لنا معتنيا بنا ، مشفقا علينا ، محسنا الينا . ونبى آخر ايضا ما ذكر أنه سيتأنس فقط . ولكنه يبين مع ذلك أنه سيولد من بتول . فاسمع كيف قال : « هاالعذراء تحبل وتلد ابنا وتدعو اسمه عماذوئيل » (الله معنا) ثم يبين أن ظهوره لم يكن خيالا بل حقيقة قال « زبدا وعسلا يأكل » وذلك هو الطعام المألوف الذى يغتذى به الاطفال فى حين ما يولدون . واذا وضح أنه ما كان انسانا ساذجا أتم كلامه « لأنه قبل أن يعرف الصبى أن يرفض الشر ويختار الخير » (اش ٧ : ١٤ ـ ١٦) وأن الدليل على أنه ليس يكون انسانا فقط ولكن مع ذلك من نسل داود اسمع اشعياء هذا بعينه كيف تقدم وذكر ذلك منه . أعلى الزمان اذ استعمل الفاظا تعكس الى معناها وتنتقل كثيرا الى معتمدها وتقدم مع ذلك فقال « ويخرج قضيب من جذع يسي وينبت غصن من أصوله ويحل عليه روح الرب روح الحكمة والفهم روح المشورة والقوة روح المعرفة ومخافة الرب ولذته تكون فى مخافة الرب » (أش ١١ : ١ ـ ٣) . لأن يسى كان أبا لداود فحصل واضحا أنه المزمع ان يجيء من تلك القبيلة وليس يأتى من تلك القبيلة فقط . ولكنه سيتقدم مجيئه من بيت داود الشريف

وهذا المعنى قد تقـدم هتافه به · اذ قال « وسيخرج قضيب من جذع يسى » فمـا كان قـوله فى وصـف قضـيب · لدن قـوله فى وصـفه وفى وصف مملكته والدليل على أنه ما قال هذا فى وصف قضيب فقد أوضحه ممـا يتلوه · لأنه اذ قال « وسيخرج قضيب » قال « ويحل عليه روح الحكمـة والفهم » وليس يقول هـذا القول قائل ولو كان عديم الفهم جدا أن نعمـة الروح تراقى الى عود · لكن من أوضح البيان أنما جاءت الى ذلـك الهيكل الفاقد العيب ، وما قال سيفد اليه لكن «ويحل عليه» لأن الروح اذا جاء اليـه يقيث عليه وما انتزح عنه ، وهـذا فقد قاله النـذير العظيم الصـوت واضـحا « قـد رأيت الروح نازلا مثـل حمـامة من السـماء فاسـتقر عليـه » (يو ١ : ٣٢) ولم يصـمت الـكتاب عن عـزم اليهـود الذى اظهروه عند ما ولد لأن البشير قال « فلما سمع هيرودس الملـك اضـطرب وجميع أورشليم معـه » (مت ٢ : ٣) واسمع النبى كيف قـد تقـدم فهتف بهـذا الأمر منذ أعلى الزمان بقوله « لأنه يولد لنـا ولد ونعطى لبنا وتكون الرياسة على كتفه ويدعى اسمه عجيبا مشيرا الها قديـرا ابا أبديا رئيس السلام ،، (اش ٩ : ٦) ·

والدليل على أنه لم يقل هـذا القول فى وصـف انسان ساذج قـوله « الها قديرا » وذلك اقناعا للمكابرين لأنه لايقال لواحد من الناس منذالدهر « الها قديرا » ولا يقال له أيضا « رئيس السلام » أى ليس لسلامه ولا لرياسته حدا وطبيعة الأحوال توضح أن رياسته وسلامه وردا الى كل أرض والى كل صقع وبحر والى كل المسكونة والى كل الجبال والروابى والتلال منذ ذلك اليوم الذى ابتدأ المسيح فيه فقال « سلامى أعطيكم · ليس كما يعطى العالم أعطيكم أنا » (يو ١٤ : ٢٧) ·

وبيان ذلك أن سلام العالم سريع الانتقال والزوال والسلام الذى يعطيه هو حقيقى راسخ باقى ليس له نهاية ولا انقضاء وهذه الأفعـال أفعـاله · والحروب من كل جهة ثائرة كثيرة والاغتيـالات الجزيلة فى كل يوم كاينـة ولـكن الـكلمة متمم أفعاله كلها · تمم هذا الفعل مع أفعاله الأخرى ·

وما تنبأوا فقط أنه سيصير انسانا · لـكنهم مع ذلك · ذكروا حالة ورودة لأنه اذا اعتزم أن يجىء لا يبرز بروقه ولا صواعقه من العلو · ولا يزلزل أرضه ولا يهز سماءه ولا ينشىء أهوالا عظيمة التأثير ولـكنه يجىء وديعا دون أن يعلم به أحد لا يزعج ولا يرجف لأنه ولد فى بيت لحم · فى منزل للحيوانات فى مذود صغير فاسمع كيف ولا هـذا الفعل صمتت عنـه

الأنبيـاء لأن أحدهم يقول « ينزل مثل المطر على الجزائز » (مز ٧٢ : ٦) دالا بذلك على سكون مجيئه وزوال الأرجاف عنه · وما أظهروا الحال فقط لكنهم اظهروا مع ذلك تصرفه حينئذ مع الناس وحكمته ودعته · وأبصر كيف أظهر هو ذلك لأنه اذا اسلم وبصـق عليـه وثلب وأهين · وضرب بالسياط وصلب أخيرا · ما انتقم ولا من واحد من الذين فعلوا هذه الفعال ولـكنه احتملها كلها بسامى فلسفته ووداعته صابرا على الاهانات والاغتيـالات وهيجان الغضب غضب ذلك المحفل الظالم وهذا جميعه فقد أوضحه الكتاب· وقال « قصبة مرضوضة لا يقصف وفتيلة خامدة لا يطفىء الى الأمان يخرج الحق · وتنتظر الجزائر شريعته » (اش ٤٢ : ٤٣) ونبى آخر أيضـا يبين المكان الذى ازمع أن يولد فيه بقوله هكذا « أما أنت يا بيت لحم أفراته ، وأنت صغيرة أن تكونى بين ألوف يهوذا فمنك يخرج لى الذى يكون متسلطا على اسرائيل ومخارجه منذ القديم منذ أيام الأزل » (مى ٥ : ٢) · ولهذا يبين لاهوته وناسوته بقوله « ومخارجه منذ القديم » قد أوضح وجوده الذى قبل الدهور وبقوله « فمنكيخرج لى الذىيكون متسلطا على اسرائيل » يبينلاهوته ومولده بذات جسمه ·

وتأمل ايضا نبوة اخرى لامعة لأنها ما ذكرت انه سيولد فقط ولـكنها مع ذلك أظهرت موضع ولادته بأنه سيكون مشرفا على أن المكان كان حقيرا صغيرا · لأن أهل المسكونة كلها تحاضر الآن معا لتبصر بيت لحم القرية التى فيها ولد وصـار المـكان مشرفا ليس من جهـة أخـرى الا من هذه الجهة وحدها · وتأمل أن النبى أيضا قد أظهر الوقت الذى أزمع أن يوافى فيـه بقوله هذا القول « لا يزول قضيب من يهوذا ومشترع من بين رجليه حتى يأتى شيلون وله يكون خضوع شعوب رابطا بالـكرمة جحشه وبالجفنة ابن اتانه غسل بالخمر لبـاسه وبـدم العنب ثوبه · مسود العينين من الخمر ومبيض الانسان من اللبن » (تك ٤٩ : ١٠ ــ ١٢) ·

أرأيت أن هذه النبوة لائقة بالمعنى لأنه جاء حين فنيت رؤساء اليهود وصاروا تحت حكم الرومان وتمت هذه النبوة « لا يزول قضيب من يهوذا ومشترع من بين رجليه حتى يأتى شيلون وله يكون خضوع شعوب » فالنبوة تصف حضور المسيح الهنا لأنه حين ولادته صار ذلك الاكتتـاب الأول لمـا استولى قيصر الرومان على أمة اليهود واقتادهم تحت نير عبوديته ، وقـد

دلت بعد ذلك على معنى آخر ، بقولها « وله يكون خضوع شعوب » لأنه لما جاء اجتذب الأمم كلها وقد قام عليه هيرودس حين ولد واعتزم قتل الأطفال ليكون منهم وهـذا الحادث لم تصمت الأنبياء عنه أيضا لكنهم قـدموا هتافهم عنه قبل حدوثه بسنين كثيرة يقول أحدهم « صوت سمع فى الرامة نوح بكاء مر · راحيل تبكى على أولادهـا وتأبى أن تتعـزى لأنهم ليسـوا بموجودين » (ار ٣١ : ١٥) واذا اعتزم أن يذهب الى مصر وضح ذلك القول بعضهم « من مصر دعوت ابنى » ولما جاء فيها واعتزم فى الحين أن يخرج آيات فى مواضع ظاهرة وقد قدم الأنذار بذلك فقال أشعيا النبى « ارض زبولون وأرض نفتالى ·· يكرم الأخير طريق البحر عبر الأردن جليل الأمم· الشعب السالك فى الظلمة أبصر نورا عظيما الجالسون فى أرض ظلال الموت أشرق عليهم نور » (اش ٩ : ١و٢) موضحا بذلك حضوره هناك وتعليمه والمعرفة الحاصلة لهم من عجائبه . ثم وصف أيضا عجائب أخرى كيف شفى العرج وكيف فتح العميان وكيف جعل الخرس ينطقون فقال « حينئذ تتفتح عيون العمى وآذان الصم تتفتح حينئذ يقفز الأعرج كالأيل ويترنم لسان الأخرس » (اش ٣٥ : ٥،٦) وهذا الأمر ما حدث فى وقت من الأوقات الا حين ورود ربنا لما صنع آيات وعجائب ·

وقد حل فى وقت من الأوقات الى الهيكل فسبحه الأطفال الذين يرضعون الثدى بنغمة فاقدة فصاحتها بتسابيح ظاهرة قائلين هذا القول « أوصنا فى الأعالى مبارك الآتى باسم الرب » وهـذا فقد تقدم النبى من أعلى الزمان وذكره بقوله هـذا القول « من أفواه الأطفال والرضع أسست حمدا بسبب اضدادك لتسكيت عـدو منتقم » (مز ٨ : ٢) · وهـذا معناه ابتعاد اليهود عن خالقهم مع أن العامة الذين لم يعرفوا شرا سمعوه نغمهم بالحمد كرسله· وعندما خاطب اليهود فى معـان كثيرة خاطبهم لأجل زوال فهمهم خطـابات كثيرة · مستورة المعنى كأنه برمز وأمثال · هذا الغرض قد تقدم النبى وذكره منذ أعلى الزمان وقال « اميلوا آذانكم الى كلام فمى افتح بمثل فمى · اذيع الغازا منذ القدم » (مز ٧٨ : ٢،١) ومع ذلك فالحكمة التى تجلت منه فى مفاوضته الجموع قد تقدم النبى فأذاعها قديما أيضا وقال « انسكبت النعمة على شفتيك » (مز ٤٥ : ٢) وقال نبى آخر « عبدى (وفى الترجمة الأصلية ابنى) يعقل يتعـالى ويرتقى ويتسامى جدا » (اش ٥٢ : ١٣) وقد وصف هذا النبى أيضا أفعـاله التى صنعها حين وروده بحكمة عجائبه بلفظ وجيز غاية فى السمو وقال « روح السيد الرب على لأن الرب مسحنى لأبشر المساكين،

أرسلنى لأعصب منكسرى القلب لأنادى للمسبيين بالعتق وللمأسورين بالاطلاق لأنادى بسنة مقبولة للرب » (اش ٦١ : ١و٢) والدليل على أنه أحسن اليهم واعتزموا هم أن يبتعدوا عنه باطلا وما كان فى امكانهم أن يذكروا له عيبا صغيرا ولا كبيرا ما قاله داود النبى ليوضح ذلك بقوله « أكثر من شعر رأسى الذين يبغضوننى بلا سبب (مز ٦٩ : ٤) وحين اعتزم أن يركب على جحش واتان ويدخل الى المدينة على هذه الحال ، تقدم زكريا النبى من أعلى الزمان وانذر بهذا الفعل على هذه الصفة بقوله « ابتهجى جدا يا ابنة صهيون اهتفى يا بنت أورشليم هوذا ملكك يأتى اليك هو عادل ومنصور وديع وراكب على حمار وعلى جحش ابن أتان » (زك ٩ : ٩) واذ أخرج باعة الحمام وأصحاب موائد الصرف وعمل هذا العمل بغيرته لبيت أبيه موضحا أنه ليس بضد لبيت أبيه لكنه ذو مشيئة واحدة معه تقدم النبى وهتف يوصف العزم الذى به عمل هذا العمل بقوله « غيرة بيتك اكلتنى » (مز ٦٩ : ٩) وهو قول بليغ ماأوضحه . وحين أزمع أن يسلم وأن يقوم بتسليمه من يشاركه فى المائدة تعجب كيف أعلن النبى ذلك بقوله « آكل خبزى رفع على عقبه » (مز٤١:٩) وتأمل اتفاق خبر الانجيل مع هذه النبوة فعند العشاء قال « الذى يغمس يده معى فى الصحفة هو يسلمنى » (مت ٢٦ : ٢٣) واعتزم أن يسلمه ليس على بسيط ذات التسليم لكن بعد بيعه لدمه الكريم وأخذه ثمنا له فما صمت النبى أيضا عن هذا لكن أظهر ما اتفق الفريقان عليه فذلك قال « ماذا تريدون أن تعطونى فأنا اسلمه اليكم . فجعلوا له ثلاثين من الفضة » (مت ٢٦ : ١٥) وقال بمعنى الرمز « فم الخاطى وفم الغاش انفتحا على » فهذا الدافع اذ عرف انه بعد ذلك أتى اثما عظيما طرح الفضة وبادر الى خنق ذاته وأهلك على هذا الوجه نفسه وأسلم امرأته الى ترميلها وأولاده الى تيتمهم وبيته الى اقفاره فانظر الآن كيف حقق النبى مصابه هذا على هذه الجهة بقوله « لتكن أيامه قليلة ووظيفته ليأخذها آخر . ليكن بنوه أيتاما وامرأته أرملة . لتيه بنوه تيها ويستعطوا . ويلتمسوا خبزا من خربهم » (مز ١٠٩ : ٨ـ١٠) .

وصار بدلا من ذاك المسلم متياس الرسول فهتف النبى بذلك قائلا : « وظيفته يأخذها آخر » .

وبعد تسليمه والقبض عليه بايثاره انتصب عليه مجلس حكم مملوءا

مخالفة كثيرة للشريعة من اليهود والأمم فابصر كيف قـد تقدم النبى قـذكر ذلك وقال « لماذا ارتجت الأمم وتفكر الشـعوب فى البـــاطل · قام ملوك الأرض وتآمر الرؤساء معا على الرب وعلى مسيحه قائلين : لنقطع قيودهما ولنطرح عنا ربطهما » (مز ٢ : ١ــ٣) واذ قال بيلاطس « اأصلب ملككم » هتفوا بذلك الصوت قائلين « ليس لنـا ملك الا قيصر » (يو ١٩ : ١٥) كل هـذا الهيـاج ضد ربنـا وهو صـامت لا يتكلم وصمته هذا فقـد أوضحه اشعياء وقال « كشاة تساق الى الذبح وكنعجة صـامتة امام جازيهـا فلم يفتح فاه » ثم بين غرض القضية البـاطلة المقامة ضده فقال « ظلم اما هو فتذلل » ومعنى هـذا هو انه لم يحكم عليـه احد حكما عادلا · ثم ذكر علة ذبحه لانه قاسى ما قاساه ليس لأجل خطايا اجترمها لأنه كان خاليا من العيوب

ولا يمكن ان يتصل اليه خطأ وانما اسلم من أجل خطايانا (رو ٤:٢٥) تأمل كيف أشار النبى الى ذلك بقوله « على انه لم يعمل ظلما ولم يكن فى فمه غش » وان سألت فلم قتل ؟ اجابك النبى « مجروح لأجل معاصينا مسحوق لأجل آثامنا » وان استطبرت ماهى الفـائدة الـكائنة من صلبـه وموته · اجابك هى هذه الخيرات التى قد تلناها الآن والتى بها ازال ونيلتنا وتلافى الجراحات الحادثة فى نفوسنا وشفاها وداواها بتلك المداواة العجيبة البديعة وانظر كيف تقـدم النبى فاذاع هذا الفعل بقوله « كلنا كغنم ضللنا ملنا كل واحد الى طريقه » وقوله « تاديب سلامنا عليه وبحبره شفينا » ·

ولم يسكت الكتاب عن ذكر عقاب أولئك العصاة الأشرار الذين اقترفوا به تلك الاهانات بل قال « الساكن فى السموات يضحك · الرب يستهزىء بهم · حينئذ يتكلم عليهم بغضبه ويرجفهم بغيظه » (مز ٢ : ٤،٥) واصفا شتاتهم فى كل موضع من المسكونة وهـذا الجلاء فقـد اوضـحه الرب فى بشارته وقال « اما اعدائى اولئك الذين لم يريدوا ان املك عليهم فاتوا بهم الى هنـا واذبحوهم قـدامى » (لو ١٩ : ٢٧) ·

ولمـا ذكر الأنبياء كيفية موته لم يسكتوا عن ايضاحه بل تكلم احدهم قائلا « ثقبوا يدى ورجلى : احصى كل عظامى » (مز ٢٢ : ١٦و١٧) وكذلك تكلموا عن كيفية دفنه فقال المرتل « بين الاموات فراشى مثل القتلى المضطجعين فى القبر ·· وضعتنى فى الجب الأسفل فى ظلمات فى أعماق » (مز٨٨:٥،٦)

ومع ذلك لم يصمت النبى عن أنواع حنوطه لأن النسوة اذ أحضرن مرا وميعه وسليخة قال النبى « كل ثيابك مر وعود وسليخة من قصور العاج سرتك الأوتار » (مز ٤٥ : ٨) ثم توقع قيامته من القبر فانظر كيف تقدم النبى باذاعة هذا الخبر فقال « لأنك لن تترك نفسى فى الهاوية · لن تدع تقيك يرى فسادا » (مز ١٦ : ١٠) والدليل على انه أراح الناس من الشيطان وجنوده وكسر أسلحة القوى وعمل هذا العمل بموته عوضا عنا ودفع الى الموت نفسه بأنه اعتزم أن يرد المخطوف ويرث هو كثيرين ثم انحدر الى الجحيم وارعب كل الذين هنالك وملأهم قلقا ونقض قلعة العدو اسمع الساكنين أسفل يقولون بعضهم لبعض « ارفعن ايتها الأرتاج رؤوسكن وارتفعن أيتها الأبواب الدهريات فيدخل ملك المجد ·· رب البدود هو ملك المجد » (مز ٢٤ : ٧ـ١٠) وأشعيا يقول « انا أسير قدامك والهضاب أمهد · أكسر مصراعى النحاس ومغاليق الحديد أقصف · وأعطيك ذخائر الظلمة وكنوز المخابىء » (اش ٤٥ : ٢و٣) ملقبا الجحيم بهذا اللقب لأنه وان كان جحيما الا انه ضبط نفوس قديسين وأوانى مكرمة مثل ابراهيم واسحق ويعقوب· فلذلك سماه كنوزا ودعاه مظلما لأن شمس العدل لم يكن قد ظهر بعد ·

والدليل على انه اعتزم أن يرتقى الى السماء ولا يقيم فى الأرض هو أن هذا الارتقاء اهتم به الأنبياء قديما فقالوا « صعد الله بهتاف الرب بصوت الصور » (مز ٤٧ : ٥) موضحا بالتهليل والبوق ظهور ارتقائه واعتلائه · والدليل على انه اذ طلع اعتزم أن يقف ليس مع الملائكة ولا مع قوة أخرى لكنه أزمع أن يجلس على العرش الملكى بعينه · اسمع ما قاله النبى فى ايضاح ذلك « قال الرب لربى اجلس عن يمينى حتى أضع أعداءك موطئا لقدميك » (مز ١١٠ : ١) ·

القســم الثـــالث

فى سلطان الرسل وقوة خدمتهم على ضعفهم ورقة حالهم

واعتزم بعد ذلك أن يرسل رسله وهذا الفعل قد سبقت الأنبياء وهتفت به « ما أجمل على الجبـــال قدمى المبشر المخبر بالسلام المبشر بالخير المخبر بالخلاص القائل لصهيون قد ملك الهك » (اش ٥٢ : ٧) ٠

واذا تأملت أى جزء يمدح من أجزاء الجسد تجده يمدح الرجلين اللتين حملتاهم الى كل صقع ٠ ثم ذكر حال اقتدارهم فقال ربنـــا يعطى المبشرين بقوله « قوة كثيرة » لأنهم ما حركوا أسلحة ولا أنفقوا أموالا ٠ ولا قهروا بقوة لجسمهم ولا بكثرة جيوشهم ٠ ولا بشىء آخر هذا تأثيره ٠ لكنهم قهروا بكلام ساذج وقوة غزيرة واظهار آيات لأنهم بمناداتهم بالمصلوب واخراجهم معجزاته استظهروا هذا الاستظهار على المسكونة لهذا المعنى قال الله « يعطى المبشرين بقوله قوة كثيرة » واصفا آياتها لأنها بالحقيقة قوة تفوق الوصف ٠ كانت تنهض الصيـاد والعشار وصـانع الخيـــام وبأوامر ساذجة كانوا يقيمون أمواتا ويطردون شياطين ويشفون مرضى ويبكمون الفلاسفة ويسدون أفواه الخطباء ويقلبون الملوك والرؤســـاء ويستظهرون على كافـــة الأمم والوثنيين ٠ فهذه الفعال كلها وصلوا اليها بذلك القول الالهى وبقوة جزيلة نقلوا الى الأحيـاء أمواتا والخطـاة الى متدينين والعمى الى ناظرين ٠ ونقلوا اسقام طبيعتنا وطردوا رذيلة أنفسنا ٠

ثم من أين حصلت هذه القوة ؟ ابحث تجـدها حصلت لهم من الروح المعزى ٠ وهـذا المعنى قـد أوضحه الكتاب بقوله « وامتلأ الجميع من الروح القـدس » (اع ٢ : ٤) والدليل على أن نعمة الروح القدس وردت فى السنة نارية وأقامت فى أفواههم أن يوئيل النبى قـد تقدم فقال منذ القديم « ويكون بعد ذلك أنى أسكب روحى على كل بشر فيتنبـأ بنوكم وبناتكم ويحلم شيوخكم أحلاما ويرى شبابكم رؤى ٠ وعلى العبيد أيضا وعلى الاماء أسكب روحى فى تلك الأيام » (يؤ ٢ : ٢٨و٢٩) ثم تقـدم فأنذر باليوم المنتظر ولم يصمت عن ذكره فقال « قبل أن يجىء يوم الرب العظيم المخوف » (عـد ٣١) ثم

أوضح خلاصنا بايماننا فقال « ويكون أن كل من يدعو باسم الرب ينجو » (عد ٣٢) ٠

ولم يرسلهم فقط ولكنه تفضل فأنقذهم الى كل صقع من المسكونة ٠ ولم يبق أحد ما لم يسمع نداءهم لأن الى الأرض كلها شخصت نعمتهم والى اقاصى المسكونة وصلت كلماتهم ٠

ثم بين انهم نادوا بسلطان كان أوفر اقتدارا من ذوى التيجان فقال « تقيمهم رؤساء على الأرض بأسرها » والدليل على أن هامتى الرسل بطرس وبولس كانا رئيسين أفضل من الملوك فيوضحه أعمالهما لأن شرائع الملوك قد تنتقض وهم بعد أحياء ٠ وشرائع هذين العظيمين مع رفقائهم الصيادين ثابتة متمكنة وهم قد قضوا آجالهم وهى باقية قد عدمت أن تكون متحركة وهذا التمكن تمكنها بعد أن حاول نقضها ملوك كثيرون بأنواع عقاب عديدة وبأسلحة العذاب الشديد والفاظ الخطابة والبلاغة واللطف والصداقة واللذة والعادة المألوفة والرذيلة الكثيرة والشياطين وابليس المحال نفسه وعوائق غير هذه جزيل عددها ٠

والدليل على أن الرسل صاروا رؤساء ممتازين وصاروا يؤثرون على من ترأسوا عليهم انه لم تكن حالهم حال الرؤساء الكثيرين فلم يكونوا مرهوبين مستعلين مخيفين وذلك كالقول « لذلك تشكر لك الشعوب الى الدهر » ومعنى ذلك هو أنهم يشكرون لك فضلك ويعتبرونها لك نعمة جزيلة انك خولتهم رؤساء هذا الرفق رفقهم ٠

القسـم الـرابع

فى قبول الامم دعوة الرسل للخلاص

والبرهان على أن النداء بايمانه يشتمل على كل مكان اسمعه قائلا : « اسألنى فأعطيك الأمم ميراثا لك وأقاصى الأرض ملكا لك » (مز ٢ : ٨) وقال أيضا فى موضع آخر « لأن الأرض تمتليء من معرفة مجد الرب كما تغطى المياه البحر » (حب ٢ : ١٤) وذكر سهولة طاعة هذه الأمم فقال « ولا يعلمون بعد كل واحد صاحبه وكل واحد أخاه قائلين اعرفوا الرب لأنهم كلهم سيعرفوننى من صغيرهم الى كبيرهم » (ار ٣١ : ٣٤) وبين أن نظام الكنيسة سيكون فى الأيام الأخيرة خاليا من شتات يناله فقال « ويكون فى آخر الأيام أن جبل بيت الرب يكون ثابتا فى رأس الجبال ويرتفع فوق التلال وتجرى اليه كل الأمم · وتسير شعوب كثيرة » (اش ٢ : ٢و٣) والدليل على أن البيعة ليست متمكنة فقط لاتتزعزع لكن تكون سلامتها مع ذلك كثيرة تشتمل على كافة المسكونة وبينما الرياسات الكثيرة فى البلدان تنتقض وتزول تصير رياستها هى بعد زمان يسير ممتدة وتكون مملكة واحدة · وأكثر السلامة تكون لا كما كانت سالفا فى ذلك العصر القديم اذ كان الصناع بأيديهم يعملون والجبابرة يتقلدون أسلحتهم ويقفون فى صف الحرب · فلما جاء المسيح الهنا انتقضت تلك العادات كلها ووقفت أفعال الحروب فى قسم محدود · فقد تقدم اشعيا النبى فأوضح ذلك قائلا « فيطبعون سيوفهم سككا ورماحهم مناجل · لا ترفع أمة على أمة سيفا ولا يتعلمون الحرب فيما بعد » (اش ٢ : ٤) لأن فى الأول كلهم عاشوا فى هذه الأعمال والآن فقد نسوا صنائعهم هذه بعينها · واليق ما يقال أن أكثرهم تركوا تلك الصناعة وان حدثت الآن حروب قليلة فما تأثيرها بالمقابلة مع تلك الحروب المتصلة فى ابتداء الزمان حين كانت تثور فى كل أمة فتن وحروب جزيل عددها ·

ويصف مع ذلك من أين تتكون الكنيسة لأنها ازمعت أن تحوى ليس الأناس الوديعين ولا الأنيسين الصالحين فقط ولكنها تحوى مع ذلك أناسا كانوا متوحشين عادمى الانسانية فى ذواتهم ويصيرون كلهم كنيسة واحدة اسمع النبى كيف قد أوضح تكون قطعانها وقال « فيسكن الذئب مع الخروف » (اش ١١ : ٦) مظهرا ما يجرى بين الملوك المؤمنين والدليل على

أن هذه الأقوال ليست فى وصف وحوش فليقل لنا اليهودى متى حدث هذا لأن ما رعى فى وقت من الأوقات ذئب مع خروف فان كان يؤمل أن يرعى فى المستقبل فما المنفعة التى يفيدها هذا الحادث لجنس الناس لكن هذا القول انما قيل فى وصف سجية الناس الوحشيين المتنمرين . فى وصف الصقالبة وأهل اتراكيس والسودان والهند وبلاد فارس والبرهان على أن هذه الأمم كلها ستتحد فى عبادته فقد بينه نبى آخرفقال « فسيسجد له الناس كل واحد من مكانه كل جزائر الأمم » (صف ٢ : ١١) ومعنى هذا الكلام الواضح أنهم ما يسجدون أيضا له بأورشليم فقط بل فى كل صقع وموضع من المسكونة لأنه ما قد أوعز الى الناس أيضا أن يسيروا الى أورشليم بل كل منهم يثبت فى منزله ويتمم هذه العبادة والدلالة على أن اليهود سيخرجون ويتعدون اسمع النبى كيف قد تقدم فذكر ذلك فقال « من فيكم يغلق الباب بل لا توقدون على مذبحى مجانا . ليست لى مسرة بكم قال رب الجنود ولا أقبل تقدمة من يدكم » ثم بين من هم العتيدون أن يخدموه فقال « لأنه من مشرق الشمس الى مغربها اسمى عظيم بين الأمم وفى كل مكان يقرب لأسمى بخور وتقدمة طاهرة (ملا ١ : ١٠ و١١) أرأيت كيف قد أوضح شرف عبادة المسيح وكيف أن مذهبها هو الأفضل المتميز لأنها ما تصير فى مكان واحد لكنها تكون فى خلقنا وسجيتنا ولا تكون بلحم ودخان ورش رماد ودم لكن افعال خدمته تكون بديانة أخرى .

ولعل قائلا يقول وكيف استجذب الرسل هؤلاء الناس كلهم وكانت لغتهم واحدة وهى اللغة العبرانية كيف استمال واحدا فواحدا منهم الصقلى والهندى واليونانى والسريانى والفارسى والانتراكى الى القبول منه فنجيبه لأنهم استمدوا من نعمة الروح موهبة كثرة اللغات هذه النفيسة الفعل ولم يذكر ذلك الرسل وحدهم لكن الأنبياء معهم قد أوضحوه ويظهر من نبواتهم ايضا أن الرسل اقتبلوا معرفة مختلف اللغات وأنهم ولا بهذه المعجزة اجتذبوا اليهود كما قيل فى نبوة اشعياء « انه بشفة لكناء وبلسان آخر يكلم هذا الشعب » ومع ذلك قال أيضا « ولكن لم يشاؤا أن يسمعوا » (اش ٢٨ : ١١ و١٢) فأى كلام نريده أبين من هذا ؟ ولما اعتزم اليهود على ذلك تقدم وذكر أنهم سيجحدون المسيح والأمم يبادرون مسرعين اليه لأن اشعياء النبى قد أوضح ذلك فقال « أصغيت الى الذين لم يسألوا عنى وجدت من الذين لم يطلبونى . قلت هأنذا هأنذا لأمة لم تسم باسمى » ثم

قصد اسرائيل بقوله « بسطت يدى طول النهار الى شعب متمرد » وقال أيضا « من صدق خبرنا ولمن استعلنت ذراع الرب · نبت قدامه كفرخ وكعرق من أرض يابسة » (اش ٥٣ : ١و٢) وما قال من صدق تعليمنا لكنه قال « من صدق خبرنا » فها هنا بين أنهم ما ينطقون بلفظ منذواتهم بل ما اخبروا به من الله اياه اذاعوا · وازمع أيضا أن يكرم حظوظنا أكثر من حظوظ أولئك ويفضلها عليها وابصر النبى أيضا كيف قد أوضح هذا الفعل بقوله « فأنا أغيرهم بما ليس شعبا بأمة غبية أغيظهم » (تث ٣٢:٢١) واصفا حفاوة الشعب ولهذا المعنى قال « بما ليس شعبا » لأن الأمم ما ظنوا أنهم سيكونون شعبا لله نظرا لحقارتهم الكثيرة وعدم فهمهم الا أنهم حصل لهم من ايمانهم انتقال انتهى تقديره الى أن ظهروا أكثر تفضيلا من أولئك اليهود المكرمين · ولعمرى أن هذا الحادث ازمع أن يبكت اليهود حتى يجتهدوا ليصيروا أفضل مما كانوا فبين النبى هذه الحوادث كلها لأنه لما قال سأفضلهم قصد بعلمه السابق أن يوبخ عصيانهم بطاعة الأمم فقال « أغيرهم بما ليس شعبا » وأعطيه نعما صالحة يبلغ تقديرها أن تحسدوه أنتم حتى أنه يوبخكم · وهذا الحادث جعلهم أفضل مما كانوا لأن الذين كانوا قد سمعوا خطاب موسى وأبصروا معجزات أنبياء جزيل عددهم وعاينوا بحرا منفلقا وصخورا متشققة وهواء منقولا وشاهدوا عجائب هذا تقديرها وذبحوا بعد ذلكأولادهم للشياطين وعبدوا باعل فاغور وضحوا لأشجار كثيرة فلما تقدمنا نحن الأمم الى ربنا واستبانت أحوالنا أفضل مما كانت كثيرا وبخنا نحن اليهود بهذه الصورة فارتدعوا وصاروا أفضل مما كانوا لأن ما لم تعلمه النبوات ومشاهدة العجائب والمعجزات أصلحته غيرتهم منا لأنه ولا واحد منهم الآن يذبح أولاده ولا يبادر الى الأصنام ولا يسجد الى عجل ·

القسم الخامس

فى ذكر بعض نبوات أخرى عن المسيح

وصورة البتولية ما كانت الشريعة العتيقة تذكر اسمها ولكن لما ازمعت أن تشرق فى البيعة الجديدة وأبصر داود المغبوط ذلك تقدم فذكر هذه الفضيلة اذ قال هذا القول انها تقدم لملكنا عذارى خلفها منقادات الى هيكل ملكنا . ولعمرى انه ما صمت عن ذكر اسم الكهنة بعينه اعنى اسم الأساقفة والرقباء لأنه قال لأقيمن رؤسائك فى سلامة ورقبائك فى العدل . واعتزم أن يجىء ويطالب الناس بخياناتهم ويطالب اليهود مع غيرهم وابصر كيف قد تقدم ملاخيا فقال هذا القول « لأنه مثل نار المحص ومثل اشنان القصار فيجلس ممحصا منقيا للفضة » (ملا ٣ : ٢،٣) موافقا كلام بولس لأن يوم القيامة يدل أنه يشطر بنار وداود أيضا قد انذر بمجيئه الثانى وقال « السحاب والضباب حوله » (مز ٩٧ : ٢) لأن مجيئه الأول حوى لُطفا وقربا كثيراً ومجيئه الثانى فما يكون هذه الحال حاله لكنه يكون من السموات بعينها وينبث حول محافل ملائكه ويلمع بوروده برايا كلها ببروق تبرق عليها لأنه قال عز قوله « لأنه كما ان البرق يخرج من المشارق ويظهر الى المغارب هكذا يكون أيضا مجيء ابن الانسان » (مت ٢٤ : ٢٧) موضحا ظهوره وأنه حينئذ ليس يحتاج الى نذير ينذر به لكن مجيئه يوضح ذاته وهذا المعنى فقد أوضحه النبى وقال الهنا يرد ورودا ظاهرا ثم استورد مجلس حكمه المنتظر وقال « يأتى الهنا ولا يصمت . نار قدامه تاكل وحوله عاصف جدا » وملاخيا ذكر أنه مثل نار المحص ومثل اشنان القصار وداود بعد ذكر عقوباته ويصف فعله الالهى فقال « يدعو السموات من فوق والأرض الى مداينة شعبه » والأرض ها هنا يقصد بها كافة الجنس البشرى وسيحضر مع كل جنس البشر جنس اليهود أيضا لأنهم اياهم يقصد فقال « اجمعوا الى اتقيائى القاطعين عهدى على ذبيحة وتخبر السموات بعدله لأن الله هو الديان » (مز ٥٠ : ٥،٦) ومعنى ذلك أن الهنا لما جاء أولا ابطل الذبائح وأمر أن لا تقدم له أيضا وأن تقبل هذه الضحية التى لنا وعباداتنا . اسمع كيف قد تقدم الانذار بهذا اذ قال « ذبيحة وتقدمة لم تسر » (مز ٤٠ : ٦) « ولكن هيأت لى جسدا » (عب ١٠ : ٥) لأنه

بجسده ازمع أن يثبت فرائض شريعته الجديدة وافعال طاعتنا لذلك قال « هيأت لى جسدا » وهذا المعنى فقد بينه النبى فى غير هذا الوضع وقال « شعب لم أعرفه يتعبد لى من سماع الأذن يسمعون لى » (مز ١٨ : ٤٣و٤٤) ما راى بحرا مغلقا ولا صخورا مشققة تفيض ماء لكنه سمع من رسلى فها هنا هيأت لى جسدا » حينئذ قلت هانذا جئت بدرج الكتاب مكتوب عنى » (مز ٤٠ : ٧) فاوضح هذين الفعلين أنه قد حضر حينئذ حين انقضت الذبائح وذلك حدث حين انتقلت رياسة اليهود الى رياسة أهل رومية وأنه قبل وروده قد تقدم الانذار بمجيئه ٠

فان سألت وكيف كتب من أجله أنه سيحضر أجيبك ان باروخ قال سيظهر فى الأرض ويتصرف مع الناس وموسى يقول هذا القول « قال لى الرب ٠ أقيم لهم نبيا من وسط اخوتهم مثلك واجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به ويكون أن الانسان الذى لا يسمع لكلامى الذى يتكلم به باسمى أنا اطالبه » (تث ١٨ : ١٨و١٩) أرأيت هذا العارض انه ماعرض ولا لواحد من الناس الا له وحده لأن أنبياء كثيرين قد فاتوا وعصوهم كلهم وخالفوهم الا أنهم ما نالهم مكروه ٠ ولما خالفوا هذا وعصوه صاروا تائهين ضالين هاربين منتقلين يجولون أماكن كثيرة وغربوا من مدينتهم ومن عبادات آباثهم وشرائعهم وحصلوا فى هوان وعذاب وعقاب وفى الفوادح التى قاسوها على أيام اسباسيانوس وتيطس التى مايمكن وصفها وكان الندب على هذه الصفة يفوق كل مصيبة وفيهم تم قول موسى النبى « ان الانسان الذى لا يسمع لكلامى الذى يتكلم به باسمى أنا أطالبه » لهذا السبب اقفرت أقوالهم وأفعالهم كلها لما عصوا ذلك النبى وخالفوه ٠

القسم السادس

فى أن شرائع ملوك العالم تنتهى بموتهم

وأما شريعة المسيح فقد تأيدت بموته

والدليل على أنه يقيم الناس كلهم فقد قدم النبى ايضاح ذلك بقوله سيقوم الموتى الذين فى القبور لأن النداء الذى منك هو شفاء لهم · لأن بعد صلبه وبعد ذبحه تكون أحواله ابهى مما كانت حسنا لأن بعد قيامته لبثت المناداة به بل أخذت تزيد لأنه لما ربط واسلمه تلميذه وبصق عليه وثلب وضرب بالسياط وصلب على خشبة واقتسم الجنود لباسه ولم يؤهل عند أولئك أن يوضع فى قبر وقضوا عليه بسوء نية فأنزل منزلة مجدف وفضل عليه باراباس الغاصب لأن رهط اليهود قال « كل من يجعل نفسه ملكا يقاوم قيصر » (يو ١٩ : ١٢) وأيضا « هاقد سمعتم تجديفه » (مت ٢٦ : ٦٥) فاذ أزمعت هذه العوارض أن تعرض كلها له لا تخافن مطلقا لأجل هذه الحوادث الحادثة على المصلوب على المضروب بالسياط على الملطوم على خده على المبصوق عليه على الذى ثلبه اللص على المقتول بتهمة اغتصاب وتجديف · فهذه الاهانات العديدة هى التى ستكون من أصل كرامته بعد قيامته حتى انه ليس يقاوم بعد بل يصير له تكريم كثير · وهذا الحادث الذى حدث هو الذى تقدم النبى وهتف به قائلا « ويكون فى ذلك اليوم أن أصل يسى القائم (أى المقام) راية للشعوب اياه تطلب الأمم ويكون محله مجدا » (ش ١١ : ١٠) فهو يشير الى نوع وفاته بعينه بأنه أوفر كرامة من التاج لأن الملوك الآن اذا وضعوا عليهم تيجانهم يرسمون فيها علامة الصليب التى هى سمة وفاته وفى حللهم البنفسجية اللون وفى تيجانهم وعلى أسلحتهم وصف علامة الصليب وفى الصلوات عند اجتماع المؤمنين يظهر الصليب على المائدة الطاهرة وفى كل صقع من المسكونة الصليب يلمع أكثر من لمعان الشمس « ويكون محله مجدا » · على أن شرائع الناس وأوامرهم من شانها أن تقوم فى وجودهم والموفقون منهم تزهر أوامرهم فى حياتهم واذا قضوا آجالهم تنتقض مع أعمارهم أوامرهم وهذا ماشاهده حاصلا ليس للغنى من الناس ولا للرئيس فقط ولكنه يتم مع الملوك أنفسهم وبيان ذلك أن شرائع الملوك تبطل بعدهم وتماثيلهم تتلاشى وذكرهم يخمد واسمهم ينسى وذووهم

ينكرون والمختصون بهم يصيرون فى الذل والهوان بعد ان كان الكثيرون يخافونهم ويعملون باشاراتهم · نعم جموعهم ومدنهم يتحول حالها وبعد أن كان فى وسعهم أن يقتلوا ويستعبدوا ويستعيدوا المأسورين من بلدانهم الا أن أحوالهم كلها مع ذلك تنتقض بعدهم وان كانت فيما سلف عظيمة معتبرة ·

وأما فى أوان صلب ربنا فحدث خلاف ذلك لان فى وقت صلبه كانت كآبة عظيمة لأن يهوذا أسلمه وبطرس جحده وباقى التلاميذ فروا وتركوه وبقى وحده بين أعدائه وكثيرون بعد ايمانهم به رجعوا الى الوراء فاما بعد أن ذبح وقضى أجله فقد صار الأمر بالعكس · ولكى تعلم أنه ما كان انسانا فريدا ساذجا وأنه يستحق أن يتعجب من أحواله فو أن اوامره ما انتقضت بموته لكن أعجب من ذلك أنها صارت أبهى حسنا وأبهج وأعلى سموا مما كانت كثيرا فان بطرس الذى لم يحتمل قبل صلبه كلام جارية بوابة بل أقسم أنه ما يعرف المسيح تراه بعد صلبه سائرا فى المسكونة أجمع مشيرا الى أن المصلوب اله وأخيرا اقتبل وفاته بالصليب منكسا وجموع من الشهداء ذبحوا واختاروا أن يقتلوا أفضل من أن ينطقوا بما نطق به بطرس عند خوفه من البوابة · والآن فكل بلد وكل مدينة وكل برية ومسكونة تنادى به مصلوبا والملوك والرؤساء والقواد والأمراء والعبيد والأحرار والأغنياء والفقراء والحكماء وأجناس الناس المختلفة وكافة الأرض التى تراها الشمس قد وصل اليهم اسمه وخضعوا وسجدوا له لكى نعرف ما هو « ويكون محله مجدا » فالمكان الذى اقتبل ذلك الجسم الذبيح كان صغيرا وحقيرا جدا وهو الآن أشرف من ايوانات كثيرة ملوكية وأوفر تكريما من الملوك « ويكون محله مجدا » ·

وهذا الحادث بعينه فما عرض له فقط لكنه قد عرض لتلاميذه لأن المحتقرين المستهان بهم المعتقلين الذين تاسوا مصاعب جزيلة لما قضوا آجالهم صاروا أوفر تكريما من الملوك والعظماء وفى مدينة رومية أقدم المدن يهطون ملوكهم وأعيانهم وكافة أشغالهم ويجرون الى قبرى الصياد والخيمى (أى بطرس وبولس) وفى مدينة القسطنطينية ملكة المدن قد اعتبره الملوك ذوو التيجان فخرا عظيما أن تدفن أجسادهم ليس عند أجداث الرسل ولا بقربهم بل بالفضاء الذى قدام الباب خارجا وصار الملوك بوابين للصيادين وسيظلون هكذا موقرين الى الأبد ·

وتأمل أيضا فى الشرف العظيم الذى تحول اليه الموت اللعين الأقبح من الميتات كلها الذى ماته مخلصنا لأنه ليس من أنواع الموت ما يصير المائت به تحت لعنة · فالمخطئون فى الزمان القديم بعضهم كانوا يحرقون وبعضهم يرجمون وبعضهم ينتهى عمرهم بصنف غير هذا من التعذيب وأما المصلوب المعلق على خشبة فلم يقاس فقط هذا التعذيب الصعب لكنه مع ذلك « ملعون كل من علق على خشبة » (غلا ٣ : ١٣) الا أن هذا الصلب الذى يخلع اللعنة على من صار اليه صار مع ذلك هذا الصلب مشرفا وأبهى من التيجان حسنا لأنه ليس لتاج الملك الآن من الاعتبار كما للصليب الاكرم وهذا الذى كان كافة الناس يرتاعون منه قديما قد صار الآن الى هذا المجد عند جميع المؤمنين مأثورا يحاربون من أجله حتى أنه يوجد فى كل مكان لهم · عند رؤسائهم عند المرؤوسين منهم عند رجالهم عند النساء منهم عند العذارى عند المتزوجين عند الأحرار والعبيد · وكلهم يرسمونه رسما متصلا ويصورونه على أشرف أعضائهم ويرسمونه كل يوم على جباههم كأنه على تمثال مشهور وعلى هذه الصفة يرسم فى المائدة الطاهرة وعلى هذه الصورة يرسم به الكهنة · على هذه الجهة يلمع أيضا وقت العشاء الربانى هذا الصليب يبصره المتجول فى كل مكان فى بيوت المؤمنين فى أسواقهم فى طرقاتهم فى البرارى فى الجبال فى الروابى فى التلال فى السفن فى البحار فى الجزائر فى ثياب المؤمنين فى أسرتهم فى أسلحتهم فى خدورهم فى مجالس شربهم فى أوانيهم الفضية فى ظروفهم الذهبية فى صناديقهم على جواهرهم وذخائرهم فى كتابة حيطانهم فى أجسام بهائمهم المألوفة كثيرا فى أجسام من يحصنونه من الشيطان · يتوشحون به فى حين حروبهم وفى زمان سلامهم وفى ساعات ليلهم ونهارهم فى صفوف المنعمين فى طوايف الأشقياء المضرورين ·

بهذه الصورة صارت هذه المنحة موقرة عند المؤمنين · بهذه الصفة صارت هذه الموهبة والمنة المتنع وصفها عند جماعاتهم يحاربون على صيانتها · ليس يخجل أحدهم منها ولا يسترها مفكرا أنها كانت صورة دالة على موت لعين لكننا كلنا نتجمل بالصليب أكثر من تجملنا بأكاليل أو تيجان أو بوشاحات كثيرة من اللؤلؤ والجواهر · وليس غريبا أن الصليب مقبول وغير مرفوض لكن أعجب من ذلك أنه مأثور معشوق محروص على تكريمه

من جماعتنا لا مع فى كل مكان موضوع فى جدران منازلنا فى سقوفنا فى مصاحفنا فى مدننا فى ضياعنا فى مواضعنا المسكونة والغير المسكونة ٠

فأنا أسأل الوثنى بلذة كيف صارت الصورة الدالة على هذه العقوبة عقوبة الموت اللعين مأثورة عند جميع المؤمنين يحرصون على تكريمها لو لم تكن قدرة المصلوب لم تزل عظيمة ؟ فان كنت تظن هذا الأمر هينا وليس شيئا ثم تعاند الحق وتتعامى مقابل الضوء فاليك أمرا آخر برهانا على عظم شأنه٠ وان سألت ما هو أجبتك قد وجد عند الذين يعاقبون المجرمين أنواع من آلات العقاب كثيرة منها خشب وسياط وسيور ورصاص واضفار يجردون بها الأجسام وجدايد يحطمون بها الأعضاء فمن من الناس اختار أن يدخل هذه الآلات الى بيته من يؤثر أن يمسها بيده أو يصاحب الشرط الذين يعملونها ويكون بقربهم أو يبصرهم فكل الناس يمقتونها ولا يريدون لمسها أو النظر اليها وبعضهم يستعيذون ويفرون منها بعيدا ويردون الحاظهم عنها وهذه الحال كانت حال الصليب العتيق فى الزمان القديم وأولى ما يقال أن حاله كانت أصعب من هذه الأصناف كثيرا وهذا فقد تقدمت ذكره فى كلامى انه كان صورة دالة على موت لعين ولكنه صار عند كافة المؤمنين موقرا يجتهد فى تكريمه مأثورا بهذه الصفة عند جماعاتهم مفضلا على جميع الأشياء ٠ وذلك العود بعينه الذى بسط عليه ذاك الجسد الأقدس مصلوبا فوقه كيف صار مكرما فى كافة المسكونة يحارب أهلها بعضهم ليحصلوا عليه وكثيرون منهم اذا وجدوا منه يسيرا يحفظونه فى غلاف ذهبى ويعلقه الرجال منهم والنساء فى أعناقهم متجملين به متحصنين بقوته ٠ على أنه قد كان عود عقوبة وخشبة تعذيب الا ان مبدع البرايا كلها وجابلها الذى نقل المسكونة من رذيلة جزيلة تقديرها الجاعل الأرض سماء هو رفع هذا الصليب وقد كان عارا ولعنة وأعلاه فوق السماء وهذه الحوادث كلها اذ تفهمها النبى قال « ويكون محله مجدا » ٠

القسم السابع

فى فضل الصليب وجزيل بركاته

لأن الصورة الدالة على الموت (ولا افتأ اكرر هذا اللفظ) صارت سببا لبركات جزيلة وسورا للصيانة والحفظ وبها جرح ابليس وغلب وصارت له ولقواته المعاندة لجاما ٠

وبهذا الصليب أبطل موتنا وكسر أبواب الجحيم النحاسية وطحنت بكراتها الحديدية وكذلك قلعة ابليس المحال ٠ بالصليب غفرت وهزمت خطايانا ٠ بالصليب انقذت المسكونة الرازحة تحت العقاب الذى تستحقه ٠ الصليب حجز الضربة المرسلة من الله الى طبيعتنا ٠ وما لم يقدر عليه البحر المنقسم والصخرة المنفجرة والهواء المنقول والمن النازل من السماء مدى أربعين سنة مع شرائع جزيل عددها فى البرية وفى فلسطين لاصلاح أمة واحدة اقتدر عليه الصليب ليس فى أمة واحدة بل فى المسكونة كلها وفى كل أرض تبصرها الشمس ٠ الصليب الدال على الموت الشنيع المخيف المستعاذ من العار الذى يجلبه اقتدر على هذه الأفعال بعد موت المصلوب عليه حتى يعرف عظم اقتدار ذلك المصلوب كيف عمل هذه الأعمال أجمع بأيسر مرام خلوا من حرب ٠ وما فعل هذه الفعال فقط لكنه بعدها أظهر مقدرته وبرهان ذلك أن المسكونة التى كانت خالية من ثمر ونسل فى معرفة الفضيلة والتى لم تفضل على أرض مقفرة ولا فرق بينها وبين امرأة عاقر هذه جعلها تلد ثمرا صالحا وصيرها بغتة فردوسا واظهرها اما ذات أولاد لا يحصى عددهم وهذا الفعل تقدم النبى منذ أعلى الزمان واظهره بهذه الصفة اذ يقول « ترنمى أيتها العاقر التى لم تلد اشيدى بالترنم أيتها التى لم تمخض لأن بنى المستوحشة أكثر من بنى ذات البعل » (اش ٥٤ : ١) وجعل هذه الحال الجليلة حالها واعطاها شريعة أفضل من الشريعة العتيقة وهذه العطية فما صمت الأنبياء عنها اذ قالوا « ها أيام تأتى يقول الرب واقطع مع بيت اسرائيل ومع بيت يهوذا عهدا جديدا كالعهد الذى قطعته مع آبائهم يوم امسكتهم بيدهم لأخرجهم من أرض مصر حين نقضوا عهدى فرفضتهم يقول الرب بل هذا هو العهد الذى أقطعه مع بيت اسرائيل بعد تلك الأيام يقول الرب اجعل شريعتى فى داخلهم واكتبها على قلوبهم » (ار ٣١ : ٣١ـ٣٣) ٠

والدليل على أنه لمـا جاء اعتزم أن يخول جميع الذين آمنوا به غفران ذنوبهم عما سبق وهنأ به النبي قائلا « لأني اصفح عن اثمهم ولا أذكرخطيئتهم بعد » (عد ٣٤) فمـا الذى يكون ابين من ذلك القول والمع وضوحا لاعلاء شأن الشريعـة الجـديدة ونعمته المعطاة لمن آمنوا بها · فطوبى لمن قبل تلك الموهبـة ولم يرفضها لأن هـذا الاله المحسن الجواد سيحضر فيما بعدقاضيا كما سبق الأنبياء واعلنوا ذلك الحضور الرهيب فمنهم من أبصره بالشـكل بعينه الذى سيوافى به ومنهم من تقدم فانذر به بكلامه لأن دانيال النبى فيما بين أهل بابل قال « كنت أرى أنه وضعت عروش وجلس القديم الأيام لباسه أبيض كالثلج وشعر رأسه كالصوف النقى وعرشه كلهيب نار وبكراته نار متقدة · نهر نار جرى وخرج من قدامه الوف تخدمه وربوات ربوات وقوف قـدامه فجلس الدين وفتحت الأسفار (دا ٧ : ٩و١٠) ولـكن الأبرار يتنعمون حينئذ ويبتهجون كقول دانيال أيضا عن الأبرار « يستيقظون هـؤلاء الى الحياة الأبدية » (دا ١٢ : ٢) ·

القسـم الثـــامن

فى شهادة النبوة ولماذا رفض اليهود دعوة المسيح

أرايت مبالغة استقصاء الأنبياء كيف قـد سـبقوا فاخبروا عن كافـة الحوادث ونادوا بكل ما سيكون فكيف تجرؤ اذا أن تنكر وقد ظهرت أمامك هذه النبوات التى تقـدم الهتـاف بها وقد رأيت أن أعمال المسيح حققت تلك النبوات ولم يسقط منها حرف واحد · ليس من يقول أنها كانت الفاظامخترعة لأننـا نستشهد بالذين تسلموا الـكتب أولا وقـد تمسكوا بها الى الآن وهم أعداء لنـا وأولاد صالبى ربنا ولـكنهم حافظون لها بغاية تامة · فانسألت لمـاذا لم يصدقوا كتبهم ؟ أجبتك لأنهم فى ذلك الحين لمـا ابصروه مجترحا آياته لم يصدقوه وعـدم تصديقهم لا يطعن فى صـدقه بل سببه تعـاميهم وقساوة قلوبهم · فاننـا نرى أن الله خلق العـالم بنظـام عجيب يشهد لقدرته وكل ما فيه يناديناأن نمجد الله تعـالى خالقه الا انه مع ذلك يوجد قوم يقولون أن العـالم متكون من ذاته وبعضهم ينـكرون تـكونه وغـيرهم ينسبون الى الشياطين ابداعه والعناية به ومنهم من ينسبون ابداعـه الى البخت والطالع والمولد والى حركات النجوم المتحيرة ولـكن هذا الاعتقـاد

الـكفرى لا يدل أن الله ليس خالقنا للكون وليس عليه تعالى أقل لوم اذا كفر النـاس بل اللوم على الذين يسلمون انفسهم للشر فيقودهم الى انـكار الحق · فالمريض مرضا خطرا قل أن ينفعه الدواء بعكس من كان مرضـه هينا · كذلك أن النفس اذا كان ودها أن تنظر الواجب ولا تحتاج فى ذلك الى معونات كثيرة وكذلك اذا كانت النفس فاقدة للود والحسن تعتورها أمراض وتمسى أسيرة هواها وتلبث عميا ولو هـداها الى الحق أبلغ الناس ·وذلك واضح من ناحية أخرى كم أناس ماسمعوا شرائع واظهروا عيشة أشرف من الشرائع وغير هؤلاء نشأوا منذ نعومة أظفـارهم الى أقصى شيخوختهم فى الشرائع وما كفوا عن انحرافهم عنها · وهذا عينه ما عرض لليهود قـديما فانهم شاهدوا آيات وعجائب لاتعد ولـكنهم لم يصـيروا أفضل مما كانوا · واهل نينوى اذ سمعوا صوتا واحدا انتقلوا عن رذيلتهم وباينوها · وهـذا يظهر أيضا اذا تأملنا فى أمر يهوذا فكم تعلم من سيده ولـكنه صار مسلما اياه · أما اللص فلم يتعلم قط ولـكنه تأثر حالا من وداعة المسيح واعترف به مصلوبا ونادى بملكوته · فلا تتخذ الأشرار ذوى النفوس الملتوية قدوة لك ولـكن اتخذ مثالا لك الذين يرتأون آراء قويمة من حقيقة أفعالهم ·فاليهود ما آمنوا به الا أن الذين من الأمم آمنوا به وهذا المعنى ذكره الأنبيـاء لأن أحدهم قال « فلا يتكلم ابن الغريب الذى اقترن بالرب قائلا افرازا افرزنى الرب من شعبه » (اش ٥٦ : ٣) وفى حين مجىء مخلصـنا قـد آمن به كنعانيون وامرأة سامرية بل مدينـة السامرة برمتها وكهنةاليهود ورؤساؤهم حاربوه وقاوموا تعاليمه ونفوا الذين آمنـوا به خارج مجمعهم · وما كان قديما هو مايكون الآن فكون البعض لا يؤمنون بالمسيح لا يدعو الى العجب لأن زوال الود وقلة الوفاء والسريرة الباطل فـكرها · هذه غريزتها والارادة التى سلبتها قوتها أمراض شهواتها هذه سجيتها ·

القسم التاسع

فى ان لاهوت يسوع تبرهن من تشييده لكنيسته وحفظها

لكن اذ قد ذكرت النبوات التى قالها الأنبياء قديما · هلم بنا نذكر النبوات التى قالها جل قوله حين طاف أرضنا وتصرف مع الناس عبيده فى الحوادث المزمع كونها حتى تعرف ولو من هذه الجهة قدرته لأنه لما جاء حينئذ لخلاص الناس بدأ يصنع العجائب وتقدم فذكر حوادث سوف تتم بعد زمان جزيل موضحا عند الكائنين فيما بعد عجائبه الكائنة فى ذلك الزمان مؤهلا القلوب لتصديقها محققا منهذا البرهان صدق أقواله فىوصف مملكته لأن نبواته منها ما يتم فى الزمن القريب ومنها ما يمتد الى البعيد ومنها ما يطل الى نهاية العالم وكل منها يبرهن على سمو لاهوته ولكى نبين كلامنا نقول بأسهل ايضاح ·

ان له المجد فى حياته على الأرض كان تابعوه اثنى عشر تلميذا ولكنه لم يكن قد انشأ كنيسة بعد ومجمع اليهود كان زاهرا · فان سألت ماذا تنبأ به لما سقطت المسكونة كلها فى الضلال والالحاد أجبتك أنه على أثر اعتراف بطرس « أنت هو المسيح ابن الله الحى » قال « على هذه الصخرة (أى على اعتراف بطرس) ابنى كنيستى وأبواب الجحيم لن تقوى عليها » (مت ١٦: ١٦و١٨) فمن أى وجه تتأمل الى هذه الكلمة تتحقق صدقه ظاهرا فليس يوجد مذهلا للعقل أنه يبنى كنيسته فى المسكونة كلها لكن الأعجب من ذلك أن ينجيها من كل ما يصيبها وهكذا لا تغلب ولا تقهر لأن هذا هو معنى قوله « وأبواب الجحيم لن تقوى عليها » فالأخطار تولد الموت ومصاعب الأخطار تهبط الى الجحيم · أعرفت صدق نبوته · أعرفت قوة وصول قوله الى غايته · أعرفت الفاظه اللامعة بافعالها · وقدرته التى يسمو تقديرها وتعرف بأيسر مرام من أعماله كلها · فقوله « ابنى كنيستى » لا يؤخذ على بسيط فهمه ولكن افتح بصيرتك وتأمل بعقلك ما هو عظم الفضاء الموضوع تحت الشمس وانه قد ملىء فى مدة يسيرة كنائس هذا مبلغ كثرتها ·

وأن قوله هذا قد نقل أمما جزيلا واستمال اليه القلوب جميعها ونقض فرائض آبائهم وتفطن فى اقتلاع عاداتهم المتأصلة فيهم وانتزع اللذة المغرمين بها وطرد قوة الرذيلة واقتلعها وذراها كالغبـــار بعيداً عنهم وأبعـد عنهم محاربتهم وهياكلهم وأصنامهم وأعيادهم النجسة وأفعالهم الشنيعة وقتارهم النجس وبددها كما يتبـدد الدخان · ثم أنشأ فى كل مكان مذابحه فى رومه وفى اقليم فارس وفى صقيع الصقالبة وفى السودان وفى الهند وقد وصل قوله الى أقصى المسكونة التى لنـا وبيان ذلك أن جزاير بريطانيا التى موقعها خارج هـذا البحر الموجود فى نهر أوكيانوس بعينه قد شهدت بقوة لفظتـه هذه لأن هنالك فيها كنائس ومذابح متمكنة فتلك اللفظة التى نطق بها حينئذ هى انغرست فى نفوس كافة الذين آمنوا وفى أفواه جماعتهم والأرض كلها على ما قيل أثمرت صلاحا بعدما كانت مملوءة من شوك الشر وصارت حقلا نظيفا وتسلمت بذور مذهبه الشريف ·

ولعمرى أن فعلا عظيما يليق بجلاله وقـدرته الالهيـة أن تبقى كنيسته لا يهلكها اضطهاد أو أذى ولـكن أعظم منه واليق بمجده أن تكون سـلامتها قائمة والذين يرجفونها كثيرون وأن يقتدر دون أن يقاومه أحد على استخلاص مسكونه هـذا اتساعها عاجلا من عاداتها التى اسـتحوذت عليها فى زمان طويل وأن ينقلها الى عادة غيرها · والفعل الأعظم أنه لم ينقلها فقط الى عادة أخرى لـكن أعجب من ذلك أنه نقلها الى عادة أصعب من عادتها بكثير لأنه ما ضادد العـادة فقط لـكن مع ذلك ضبط اللذة وهما غاضبتان لأن العادات كانوا قـد تسلموها منذ سنين كثيرة من آبائهم وأجدادهم وآباء اجدادهم فى نسبتهم وفى حكمائهم وخطبائهم واقنعهم أن يرفضوها وهذا فكان أصـعب الأفعال وأثقلها وأن يتسلموا عادة أخرى جديدة فى ذلك الوقت دخيلةوأصعب من ذلك أنها حاوية السجية المتعبة كثيرا لأنها حجزتهم عن التنعم وأوجدتهم فى الصوم منعتهم عن حب الأموال والأملاك وثبتتهم فى الزهـد والقناعـة ابعدتهم من الزنا وقـدمتهم فى العفة حجزتهم عن الغضب ومكنتهم فىالوداعة منعتهم عن الحسد وثبتتهم فى حب المؤاخاة صدتهم عن الطريق العريضـة الرحبة ومكنتهم فى السبيل الضيقة الضاغطة بعد أن نشـأوا على ضـدها والذين صـار معهم ذلك بقـدرته هم بعينهم الذين شهدوا انهم داموا طويلا متعودين الرذيلة حتى صـاروا فى طاعتها الين من الطين ولـكنه لـما دعاهم

الى سلوك السبيل الضيقة الضاغطة الحرجة الصعبة نفضوا غبارها عنـه ومالت قلوبهم اليه ٠

وان سألت وكم استمال من القلوب اليه أجبتك أنه ما اسـتمال اثنين ولا عشرة ولا عشرين ولا مائة ولا الفا لـكن استمال جميع القـاطنين تحت السماء الا القليل منهم وان استخبرت بمن استمال هؤلاء كلهم الى الانعطاف نحوه أجبتك باثنى عشر انسانا عادمى المعرفةالبشرية خالين فصاحة السنتهم ليسوا من ذوى اليسار فقراء لا يملكون وطنا ولا اقتدار أقوال ولا تعمق خطابة ولا معونة معرفة لـكنه استمال لهؤلاء الصيادين والخيمين قوما لغـاتهم غير لغاتهم لأنهم ما كانوا يعرفون لغـات الذين استمالوهم ولم تكن لهم الا لغـة غريبـة مبتـذلة أكثر من اللغـات كلها وهى اللغـة العبرانية بهؤلاء ابتنى الـكنيسة المبثوثة من أقاصى المسكونة الى اقصائها ٠ وليس هذا الفعل وحده يوجد عجيبا بل الاعجب منذلك أن هؤلاء البسطاء الفقراء القليلعددهم الذين لم يتثقفوا بالمعارف الذين يسهل انزالالهوان بهم قلدوا اصلاحالمسكونة كلها وأوعز اليهم أن يقتادوها فى سجايا وعادات أصـعب من غيرها بكثير وما فعلوا هـذه الأفعـال فى سـلامة لـكنهم فعلوها والحروب الشعواء من سائر الجهات ثائرة عليهم فى كل أمة فى كل مدينـــة بل فى كل بيت كانت تثور عليهم حرب لأنهم عند دخولهم ودخول تعليمهم اليه ربما انفصل الابن من أبيـه والـكنة من حماتها والأخ من اخيه والعبد من سيده والمرؤوس من رئيسه والرجل من امرأته والمرأة من رجلها والأب من أولاده لأنهم ماكانوا كلهم يقبلون تعـاليمهم دفعـة واحدة وكان ذلك يجلب لهم كل يوم اضطهادا وحروبا متصلة وميتـات كثيرة ويجعل أعـداءهم يحـذرون منهم كما من أعداء مشاغبين وكانوا كلهم يطردونهم الملوك منهم والرؤساء العامة والأحرار والعبيد والجموع والمـدن وما كانوا يطردون الرسل وحدهم لـكن يفعلون أصعب من ذلك فيطردون معهم الذين قبلوا ايمانهم الذين كانوا قد وعظوهم وتلمذوهم فكانت حربهم تنمو نموا يعم التلاميذ ومن يتلمذونهم ٠

وتلك المقاومة التى وجهت للرسل لأن تعليمهم كان مضادا لأوامر الملوك والأمم ولغاتهم وفرائضهم لأنهم علموهم أن يبتعدوا عن أصنامهم وأن يحتقروا هياكلهم التى كان آباؤهم وأجدادهم كلهم يخدمونها ويرفضوا أعمال عباداتهم

وهذه الاعتقادات كانت تعتبر عند أولئك الجهال ذات شأن عظيم فكانوا يبذلون انفسهم من أجلها بذلا · فكيف تكون عندهم أقل شأنا مما يعلم به الرسل وكيف يمكنهم أن يؤمنوا بمن ولدته مريم وصلب بعد أن وقف في مجلس قضاء الوالي وبصق عليه وقاسى مصاعب جزيل عددها وصبر على موت شنيع ودفن وقام وأصناف آلامه كانت واضحة لكل الذين شاهدوه وهي ضربه بالسياط واللطم في خده وأفعال الهوان الواصلة الى وجهه الكائنة بمكاره البصاق واللطمات والاستهزاء الكثير وبالجملة فكان أمر صلبه ظاهرا للجميع أما دلائل قيامته فما كانت بهذه الصفة لانه لما قام ظهر لهؤلاء الرسل وحدهم · ولكن الرسل مع ذلك اذ قالوا هذه الأقوال استمالوا سامعيها الى قبولها منهم وابتنوا الكنيسة على هذه الجبة وان سألت كيف ابتنوها وبأية طريقة أجبتك ابتنوها بقدرة الذي أمرهم بهذه الأوامر لأنه هو الذي تقدم وبين لهم أفعالهم كلها وجعل الحوادث الصعبة سهلة عليهم لأنه لو لم تكن قدرة الهية التي احكمت هذه الأفعال لما كانت هذه الشرائع استمدت مقدمة لها ولا مبدأ لأن كيف يكون ذلك ولكن ذلك القائل للسماء كوني فكانت وللارض أن توجد فوجدت ولكل المخلوقات أن تظهر فتلمع الشمس وتبدو النجوم وأبدع البرايا كلها بقوله هو بعينه الذي غرس هذه الكنائس وتلك اللفظة « أبني كنيستي » هي التي فعلت هذه الأفعال كلها لأن أقوال الهنا قوية في فعلها مبدعة أفعالها العجيبة لأنه على نحو ما قال « لتنبت الأرض عشبا » (تك ١ : ١١) فصارت قابلة لأمره وبغتة برزت فيها الجنات والمروج وصارت كلها بستانا مخصبا وكذلك قال الآن « ابني كنيستي » وكان ذلك بسهولة كثيرة وأسرع قوله يتم بأسرع من اللهب والمغتصبون متدرعون بسلاحهم عليها والجند يهزون عليها اسلحتهم والجموع مهتاجون أشد من اهتياج النار وعاداتهم مقابلة لها والخطباء والحكماء المغالطون والموسرون والرؤساء يعاندونها فأفنى الشوك ونظف حقولها وزرع قول انذاره · والذين آمنوا به بعضهم سكنوا السجون وبعضهم أخذوا للمنفى وبعضهم سلبت أموالهم وبعضهم قتلوا وقطعوا وبعضهم دفعوا الى النار ومنهم اناس غرقوا واصطبروا على كل نوع من العذاب مهانين مطرودين من كل جهة وآخرون اكثر من أولئك تقدموا الى الايمان ولم يرعهم ما قاساه غيرهم بل صاروا اكثر نشاطا وهكذا دخلوا الى حظيرة الايمان لا مرغمين ولا مكرهين بل برغبة وشوق محاضرين شاكرين للذين هدوهم الى الايمان فضلهم · ومع انهم كانوا

ينظرون دماء المسيحيين تجرى أنهارا الا أنهم صاروا فى ايمانهم أكثر حرارة من غيرهم . فهكذا عرض هذا الأمر للتلاميذ ولن تبعوهم فمنهم اقوام صاروا مكتوفين ومنهم أناس مطرودين ومنهم طائفة مجلودين ومنهم جماعة لشدائد غير هذه مقاسين فكان المتتلمذون لهم يصيرون أكثر عددا وأوفر نشاطا وبولس العظيم فى الرسل يهتف قائلا « وأكثر الأخوة وهم واثقون فى الرب بوثقى يجترئون على التكلم بالكلمة بلا خوف » (فى١:١٤) وقال ايضا « لأنكم تألمتم أنتم أيضا من أهل عشيرتكم تلك الآلام عينها كما هم ايضا من اليهود . الذين قتلوا الرب يسوع وأنبياءهم واضطهدونا نحن . وهم غير مرضين لله واضداد لجميع الناس . يمنعوننا من أن نكلم الأمم لكى يخلصوا » (١ تس ٢ : ١٤ـ١٦) وقال ايضا لآخرين « ولكن تذكروا الأيام السالفة التى فيها بعدما أنرتم صبرتم على مجاهدة آلام كثيرة من جهة مشهورين بتعييرات وضيقات ومن جهة صائرين شركاء الذين تصرف فيهم هكذا لأنكم رثيتم لقيودى أيضا وقبلتم سلب أموالكم بفرح عالمين فى أنفسكم أن لكم مالا أفضل فى السموات وباقيا » (عب ١٠ : ٣٢ ـ ٣٤) .

أعرفت فرط قدرة العامل هذه الأعمال لأن ليس مدهشا فقط انهم لم يحزنوا أو لم يغتموا عند مقاساتهم هذه المصاعب لكن أعجب من ذلك أنهم فرحوا بها وركضوا لها مسرورين ولعمرى لعجب ما وصف به الرسول صبر هؤلاء بقوله « وقبلتم سلب أموالكم بفرح » وكذلك قيل عن الرسل « فذهبوا فرحين من أمام المجمع لأنهم حسبوا مستأهلين أن يهانوا من أجل اسمه » (اع ٥ : ٤١) وقال الرسول بولس عن نفسه « الآن افرح فى آلامى لأجلكم وأكمل نقائص شدائد المسيح فى جسمى » (كو ١ : ٢٤) وهذا الرسول لم يفرح بآلامه فقط لكنه مع ذلك استدعى تلاميذه الى مشاركته فى هذا الفرح فكان هذا دلالة على نفس مسرورة سرورا زائدا اذ قال هذا القول بعينه . أنا أسر وأبتهج معكم كلكم وقال أيضا هذا القول وانتم فابتهجوا مسرورين بفرحى وأنا أقول له قل لى فما الذى جعلك تمتلىء فرحا هذا المبلغ مبلغه فيجيبنى لأننى أبذل حياتى لتقدم بيعة الله .

ويالله العجب من انه لا يستطيع أحد أن يبنى حائطا واحدا ينظم بناءه

بحجارة وكلس بينما يكون مطرودا ممنوعا من أن يبنى . الا أن هؤلاء الأفاضل ابتنوا فى كل موضع من المسكونة كنائس هذا مقدار كثرتها وكانوا متهشمين مكتوفين مطرودين هاربين منهوبين مجلودين مذبوحين محروقين مغرقين هم وتلاميذهم فابتنوها ليس بحجارة لكنهم ابتنوها بنفوس المؤمنين الأفاضل وهذا أصعب كثيرا من البناء بالحجارة لأن بناء حائط أسهل بكثير من نقل نفس قد اطغتها الشياطين السنين الكثيرة وعسير جدا اقتناعها لكى تنتقل وتترك طغيانها ويتقدم الى عناء هذا مبلغ عظمته الا أن العراة الحفاة الملتحفين ثوبا واحدا اقتدروا مع ذلك أن يجولوا المسكونة كلها لأن القائل على هذه الصخرة أبنى كنيستى وأبواب الجحيم لن تقوى عليها مجدهم واعانهم وجعلهم قادرين على محاربة العالم كله . فكم من أعداء أقوياء اصطفوا لمقاتلتهم فى ذلك الحين وكم من اضطهادات صعبة أثاروها عليهم وكيف كان حال الكنيسة فى كافة الزمان السالف حين كانت الأمانة قد غرست جديدا حين كانت الشعوب قليلة التمييز لينة فى عزائمها وكان الملوك وثنيين لا سيما أوغسطس وطيباريوس وغابيوس ونيرون وسوسباسيانوس وتيطس والذين بعدهم كلهم الى زمان قسطنطين السعيد الملك الكبير وهؤلاء أجمع حاربوا الكنيسة فبعضهم حاربها حربا أقل وبعضهم قاتلها قتالا أشد الا أنهم مع ذلك كلهم حاربوها ومع ذلك فهذه الاغتيالات والغارات نقضها أيسر من نقض منسج العنكبوت وصارت أمام ايمانهم كالبخار وصارت أضعف من الغبار وفوق ذلك فبقتل المسيحيين أظهروا فضائلهم وخدمونا بترك سيرتهم الحميدة التى صارت ذخائرنا فى الكنيسة وأعمدة لها وهكذا لم يكونوا بركة فى حياتهم فقط لكن وبعد وفاتهم أيضا صاروا سبب منفعة كثيرة للذين أتوا بعدهم .

اعرفت قوة سابق قوله أن « ابواب الجحيم لن تقوى عليها » فمن هذه الحوادث الحاضرة تحققنا صدق النبوة المتقدمة أن الكنيسة لم يقهرها قاهر وان كانوا لم يستطيعوا الى قهرها سبيلا وعددها قليل حين كانت معتبرة بدعة حديثة حين كان تعليمها جديدا تمكينه ، حين كانت هذه الحروب تتقاطر عليها ، فبالأولى لا يمكنهم أن يقهروها الآن وقد وصلت الى المسكونة أجمع والى كل موضع منها والى جبالها وروابيها وتلالها والى كل اراضيها وبحارها والى ممالكها التى تعاينها الشمس بعد ان هدمت الوثنية

وأقفلت هياكلهم وحطمت أصنامهم وأبطلت كافة أعيادهم وأفعالهم وذخائرهم ودخائلهم وقتارهم ونجس ضحاياهم .

وكيف وصل مذهب هـذا سموه وهـذا مقدار عظمته مع عوائق جزيل تقـديرها الى غاية بهذه الصـورة بهية والى نهـاية شاهدة بحقيقته لو لم تكن قـدرة الهية يتعذر محاربتها قـدرة الذى تقـدم فقـال هـذه الأقوال وتممها ومن يستطيع أن ينكر هـذه القوة بعد ذلك ويعاند فى هـذا الحق الا أن كان من المجانين الذين قد انحرف تمييزهم والذين قـد عدموا بصائرهم فى ذات طبيعتهم .

وليست هذه الأقوال فقط لـكن ونبوات أخرى تنادى بقدرته التى يعجز العالم كله عن محاربتها لأنه تقـدم فوصف الحوادث المـأمولة بكافة الصدق ومن الممتنع أن تسقط لفظة من الألفـاظ التى قالها وزوال السماء والأرض أسهل من أن يطعن على لفظة واحدة من الفاظه ونبواته أنها قيلت عبثا ولهذا السبب أوضح هذا المعنى قبل وصول أفعاله الى غايته وحققه على هذه الجهة تحقيقا بينـا فى صحة أقـواله التى قالهـا وقال « السماء والأرض تزولان ولـكن كلامى لا يزول » .

وذلك على جهة الصدق لأنهـا وان كانت أقوالا لـكنها اقوال مبـدع أفعـالها فعلى هذه الجهة كون السماء وخلق جميع الملائكة على هذه الصفة أبدع القوات الأخرى غير المنظورة وهـذا المعنى قـد أوضحه النبى بقوله « قال فكان وأمر فصـار » فهكـذا أبدع الخليقة كلها التى فوق والتى أسفل المحسوسة وغير المحسوسة التى فى جسم والخالية من جسم .

فمن كانت هذه القدرة قـدرته يستطيع كل شىء ولنوضح ذلك بأكثر مما ذكرنا من نبوة أخرى لامعة أكثر من الشمس وأسطع من شعاعها موضوعة لدى أبصـار النـاس كلهم ممتدة الى كافـة الأجيـال الـكائنة فيما بعـد كامتداد تلك النبوة الأولى لأن نبواته تفوق غيرها لأنهـا لا تنتهى باتمـام غايتها ولا تنقضى فى جيل واحـد لـكنها تمتـد تتمادى مع جميع النـاس الموجودين والـكائنين بعـدهم ومع الذين بعد أولئك ومع الذين بعـد هؤلاء أيضا الى الانقضـاء لـكى يتأملوها ويتحققوا قوة صدقها والنبوة التى نحن

بصددها مثل الأولى أيضا لأنها منذ اليوم الذى قيلت فيه والى انقضاء الدهر قد وقفت زاهرة لا تتزعزع لامعة منظورة فى كل حين نامية متدرجة الى قدرة أعظم ومنها يجتنى الناس الى يوم مجيء المسيح أعظم المنافع ٠

وان سألت فما هذه النبوة أجبتك لما نظر ربنا فى ذلك الحين الى هيكل اليهود الذى كان حينئذ زاهرا متلألئا فى كل جهة منه بكثرة ذهبه وفضته ونحاسه وتعظمه وفخيم أبنيته حاويا جسامة فخره من حسن صناعته ومادته وآلاته واذ بهت تلاميذه من جماله اسمع قوله لهم « أما تنظرون جميع هذه ٠ الحق أقول لكم أنه لا يترك ههنا حجر على حجر لا ينقض » (مت ٢٤ : ٢) موضحا انقلاب الهيكل اليهودى بعد ذلك الوقت وخرابه وكمال ابادته لأن تلك الأبنية كلها البهية الظاهر حسنها صارت الى العدم٠ اعرفت قدرته أنها عظيمة وصفها فهذا الهيكل الذى لم يضارعه هيكل آخر فى ماكان له من التوقير والتكرم الجزيلين لأن القاطنين من اليهود فى كل صقع من المسكونة فى أقاصى الأرض بأعيانها كانوا يوافون الى هنالك حاملين الى هيكلهم العتيق هداياهم وضحاياهم وقرابينهم وغلاتهم وأصناف غير هذه كثيرة مجملين هيكلهم بثروة المسكونة وكافة اليهود الملتجئين الى دينهم كانوا يتقاطرون اليه من سائر جهات الدنيا وكان اسم ذاك المكان عظيما واصلا الى أقاصى الأرض والمسكونة أجمع الا أن كلمة واحدة من يسوع غيبت تلك الأبنية كلها وجعلتها زائلة كالغبار والموضع الذى ماكان لليهود كلهم أن يدخلوه واليق ما يقال أن المكان الذى ماكانت جماعة الكهنة تقدر أن تدخله ولم يكن الدخول اليه مباحا الا لواحد وحده وهو الذى قد فاز برياسة الكهنة وانما اطلق له الدخول دفعة واحدة فى السنة بجلته وأكاليله وصدرته صار الآن مباحا للأشرار والأثمة وحق لمن لادين لهم أن يمشوا فيه ولا يمنعهم مانع لأن تلك اللفظة عند ورودها غيبت تلك الأبنية ونقضتها وبقى من الهيكل أثر مقداره مقدار مابين الموضع الذى كان فيه العتيق ٠ فتفطن فى هذا الفعل الجليل القدر لأن الذين اقتدروا على أفعال جزيل قدرها وقهروا ملوكا وأمما وغلبوا فى كل جهة محاربيهم خلوا من دم وحرب وقاموا بظفرات كثيرة جليلة بديعة هؤلاء منذ ذلك الوقت الى يومنا هذا ما اقتدروا أن ينشئوا هيكلا واحدا وهذه حالهم وقد قام ملوك كثيرون يساعدونهم وكل اليهود فى أقطار المسكونة وأموالهم جزيلة لم يستطيعوا ذلك ٠

أعرفت كيف ماقد بنـاه ربنا لم ينقضه ناقض وما نقضه لم يبنـه بان لأنه ابتنى كنيسته فلم يقتدر واحد من الناس أن ينقضها ونقض هيكل اليهود فلم يقتـدر أحد من النـاس أن يعمره · فالأعـداء أرادوا أن ينقضوا كنيسته الا أنهم ما اقتـدروا على ذلك وقـد اجتهدوا أن يعمروا ذلك الهيكل الا أنهم ما استطاعوا ولئلا يقول قائل أنهم لو كانوا قصـدوا بنـاءه لـكانوا قـد قـدروا عليه نقول ينبئنا التـاريخ أنهم قصـدوا ذلك وما امكنهم شيئا وبيان ذلك أن في سلطة يوليـانوس العـاصي الغالب كل النـاس بالحاده خـولهم سلطانا حينئذ ومساعـدة ومارسوا العمل وما امكنهم أن يشرعوا فيـه ولا قليلا لأن نار طفـرت من أساسه فطردتهم كلهم وهـذه علامة دالة على أنهم أرادوا اعمـارته وما قـدروا وبقيت أسـاساته وما امكنهم أن يعمـروه ولا يبتنوا فيه شيئا ·

وفي التوراة أن هذا الهيكل قد نقض في ما سـلف من الزمان وبعـد سبعين سنة عند عودتهم من بابل انشيء في الحين وصار أبهى وأحسن من الهيكل الأول ولـكن بعد أن تنبـأ المخلص على خرابه قـد عبرت اربعمائة سنة وليست لهم همـة ولا انتظـار لعمـارته أيضـا وليس من يمنعهم الا القدرة الالهية ·

والا يوجد كثيرون منهم في بلـد فلسـطين وفي كل مكان والفـرائض اليهودية متغيبـة ورسـوم ذبائحهم وأفعال قرابينهم وأعمال شريعتهم التي تناسب هذه معطلة خامدة لأن ليس ممكنا لهم أن ينصبوا دكة ولا أن يقدموا ضحية ولا ينضحوا نضـوحا ولا أن يذبحوا خروفا ولا يقـدموا بخورا ولا أن يقرأوا شريعتهم ولا أن يعيـدوا عيدا ولا أن يعملوا عملا غير هذه من تلك الأعمـال التي كانوا يعملونهـا في الهيكل لـكنهم لمـا كانوا في وقت من تلك الأعمـال التي كانوا يعملونها في الهيكل لـكنهم لمـا كانوا في وقت من الأوقات في بابل والزمهم الذين سبوهم أن يترنموا مزمورا واحدا ماأجابوهم الى ذلك ولا اطاعوهم وقد كانوا مأسورين وعبيدا لساداتهم الذين استظهروا عليهم لـكنهم كانوا قـد فقدوا وطنهم وحريتهم وفي أشد الخطر من حياتهم بينهم حاضلين في وسط فخ اعـدائهم فلما امروا أن يسبحوا تلك التسبحة التي كانوا يسبحونها بالات المزامير قالوا هـذا القول « على انهـار بابل

هنـاك جلسنا بكينا أيضـا عندما تذكرنا صهيون على الصفصاف فيوسطها علقنا أعوادنا لأنه هنـاك سألنا الذين سبونا كلام ترنيمة قائلين رنموا لنا من ترنيمات صهيون كيف نرنم ترنيمة الرب فى أرض غريبة » (مز١٣٧:١ـ٤) وما يتجه لأحد من النـاس أن يقول أنهم انما عملوا هـذا العمل لعدم وجود اداة الترنم معهم بل لأنهم افتكروا أنه لا يجوز لهم أن يرنموا ترنيمة الرب فى أرض غريبـة · أى وهم بعيـدون عن الهيكل لأن آلات الترنيم قد كانت معهم لأنهم قـد قالوا « على الصفصاف فى وسطها علقنا أعوادنا » ومعذلك افتكروا أنه لا يجوز لهم أن يصـوموا صـوما بعيـدا عن الهيكل وهذا المعنى فقـد أوضحه النبى لهم وقال « العلكم صمتم لى صوما فى مدى سبعين سنة يقول الرب » والدليل على أنهم لم يضحوا ضحية ولا نضحوا نضوحا فاسمع الثلاثة فتيـة يبينون هـذا بقولهم « ليس يوجد لنـا رئيس ولا نبى ولا مرشد ولا موضع نقـدم فيـه لديك ثمرة فنصـادف منك رحمـة » وما قالوا ليس يوجـد كاهن لأن كهنتهم قـد كانوا حاضرين معهم لـكن لـكى تعلم أنهمكانوا يعتبرون الهيكل مقر العبـادة الصحيحة والاشتراع كله به ارتبط وانحصر قالوا ليس يوجد مكان ذلك لأنهم كانوا يعتبرون أنه ليس جائزا لهم ولا أن يقرأوا قراءة خارج ذلك الهيكل وهـذا الفعل فقـد شكاه منهم نبى آخر فى وقت من الأوقات وقال « قد قرأوا شريعتهم خارج هيكلهم » ·

ولعمرى أنهم ما عملوا فصـحا ولا عيـد مظال ولا قاموا بأى فريضة من الفرائض لأنهم كانوا قد عرفوا أن هـذه كلها قـد حجزها عنهم اقفـار موضعهم وأن تعـاطوا منها شـيئا فانما يتعـاطونه منحرفين عن شريعتهم ويدون عن ذلك طائلة معصيتهم وما قـدروا أن ينهضوا ببنـاء المـكان الذى فيـه كان جائزا لهم أن يفعلوا هـذه الأفعـال كلها بحكم شريعتهم وسنتهم لأن قـدرة المسيح البانيـة كنيسته هى التى هـدمت هذا الهيكل اليهودى وقد تقـدم الأنبيـاء فـذكروا ذلك أن المسيح عند حضوره يعمل هذه الأعمال مع أن واحدا منهم وهو ملاخى كائن بعد أسرهم قال « من فيكم يغلق الباب بل لا توقدون على مذبحى مجانا · ليست لى مسرة بكم قال رب الجنود ولا اقبل تقدمة من يدكم لأنه من مشرق الشمس الى مغربها اسمى عظيم بين الأمم وفى كل مكان يقرب لاسمى بخور وتقدمة طاهرة » (ملا ١ : ١٠و١١) ·

أعرفت كيف اخرج الديانة اليهودية واظهر الديانة المسيحية بهية لامعة متحدة الى كل مكان من الارض وكل ذلك سبق الانبياء وقالوا عنـــه لاسيما دانيال الذى انبـــأهم صريحا ببطلان ذبائحهم بمجيء المسيح · فسبيلنا الآن أن نمارس الطريق التى اعتمـدناها ونتـــلافى مماحكة الوثنيين الذين اليهم اوجه القول ·

وأقول ما ذكرت لـــكم الأموات الذين انهضوا ولا البرص الذين طهروا يقال ان هـــذه الأقوال كاذبة لأنه من ابصر هـــذه الآيات من سمعها ؟ على أن الذين قالوا انه صلب وبصـــق عليه ولطم واقتبل ضربا على راسه أولئـــك بعينهم ذكروا آياته وعجائبـــه فـكيف نصـدقهم اذا وصفوا ما احتمل من اهانة ونزل آياته وعجائبـــه التى ذكروها فى منزلة أخبـــار لم تكن ؟ نعـــم لقـــد كنا نشك فى أقوالهم لو اكتفوا بوصف مجـــد معلمهم وفخره وصمتوا عن ذكر العوارض المـــكروهة المعتبرة عنـــد الـــكل عارا التى نزلت به · فالآن فقـــد اظهروا صدقهم اذ كتبوا يصـــفون تلك العوارض المـــكروهة وذكروها كلها بأبلغ الاستقصاء وبالفاظ واسعة كثيرة وما أغفلوا منها أمرا صغيرا ولا كبيرا على أنهم فى آياته وعجائبـــه فقـــد أهملوا أكثرها أما الامه فذكروها كلها والعوارض المستكرهة عند الناس أوضحوها بأسرها ·

أما أنا فانى لم اذكر ولا صنفا واحدا من آياته وعجائبه لـــكى اسد كل لسان متطاول بزيادة وقاحتـــه وانما أوردت الى وسط كل من هـــذه الأفعال الظاهرة الآن الموضوعة أمام الحاظنا التى هى أبين من الشـــمس وضـــوحا والمزروعة فى كل صقع من المسكونة الواصـــلة الى اقاصى الأرض كلها التى أحكامها تفوق الطبيعـــة الانسانيـــة التى هى أفعـــال الهنـــا وحـــده · فاذا قلت أنه لم يقم ميتـــا هل يمكنك أن تقول هذا القول ان كنائسه ليست موجودة فى المسكونة وهل تنكر انهـــا اضطهدت اضطهادات عنيفـــة وحوربت ولكنها انتظهرت على معانديها وقهـــرتهم فاذا جاز لك ان تقـــول أن الشمس غير موجودة يجوز لك أن تقول ان كنيسة المسيح لم تصبها تلك العوارض · وما قولك فى هيكل اليهود أما تعـــاين انقلابه موضوعا على الحاظ اهل المسكونة كلها لم لا تفكر فى ذلك ؟ ان لم يكن المسيح الها فهو اله قادر لأنه حفظ الذين عبدوه وأرضوه من الهلاك الذى حاق بهم ولم يحفظهم فقط بل انماهموجعلهم

يزيدون عـددا أما الذين صـادموه وصلبوه تذليـلا فقـد أوصلهم الى أن فقدوا مدينتهم ومذهبهم كله وصاروا يجولون ضالين هاربين ٠

ان هؤلاء اليهود قـد اعتمدوا حرب أهل رومية وهزوا عليهم اسلحتهم واستظهروا عليهم فى بعض المواضع ومع أن هـذا الاقتـدار كان اقتدارهم ولـكن مع ذلك الذين حاربوا ملوكا جبـابرة وجنودا وقـوادا واسـتباحوا اناسا جزيلا عـددهم ما اقتدروا أن يقيموا هيكلا واحدا ولـكنهم قـد ابتنوا فى كل مكان من المـدن جوامع لهم والمـكان الذى كان لهم سالفا فخر مذهبهم وفيه كانوا قد اعتادوا أن يعملوا فرائضهم كلها وفيه التأمت ديانتهم اليهودية كلها ما قـدروا أن ينهضوه ويبنوه لأجل قوة الذى قال أنه لا يبقى فيـه حجر على حجر فله السبح والمجد والقدرة والعظمة والملك مع ابيه الصالح وروح قدسه المحيى الآن ودائما والى أبد الآبدين وآخر الدهور كلها آمين ٠

المقـــالة الثانيـــة

فى الروح القـــدس

ان بالأمس قـد سبح عندنا لحلول الروح القدس المسجود له يا محبى المسيح المجد ليس من الألسن البشرية بل المشهود له بالقوة الأبوية لأن كلام الله ما يتـأيد بأقوالنـا بل بقوة تأثيره فينـا لنثمر أعمـالا حسنة ويتـأيد بما يرشدنا اليه من حسن العبـادة فـكلام الله موحى به من الروح القدس. وتعليم الروح القـدس هو مصـباح حسن العبـادة والهادى الى معرفة الله والقائد الى الصواب فضرورى لـكم أن تلبثوا فى اسـتماع تفسـير الروح القدس المسجود له لنقول شيئا فى قوته المجيدة القدسية واكرر هـذا المعنى نفسه فأقول لنعرف قوة الروح ليس ببليغ كلامنا بل بالتى نتعلم بها من الروح القدس كما تعلمنا الأقوال الالهية ومن الأقوال التى أنذر بها هو نفسه متكلما عن ذاته ونطق بها الأنبياء والرسل أظهر عظمته وجلاله .

هو بالطبيعة غير متجزىء لـكونه بارزا من الطبيعة غير المتجزئة ولا منقسمة . وأما اسمه فهو الروح القـدس روح الحق روح الله روح الآب روح الابن روح المسيح روح الرب هكذا يسميه الـكتاب بل هكذا هو يسمى ذاته روح الله والروح الذى من الله ولئلا اذا ماسمعنا نحن أنه « روح الله » نتوهم أن على سبيل الاختصاص يقال له روح الله أورد الكتاب قائلا « الروح القدس » واضـافة لقوله روح الله والروح الذى من الله لأن السموات والأرض أيضا هى لله لـكونها صنعه وما يقـال عن شىء أنه من الله سوى ما هو من جوهره ويقال الروح القـدس لأن هذه التسمية هى الأولى والحقيقيـة والتى تمتلك المعنى صحيحا والموضحة طبيعة الروح القدس روح الله .

من سماه روح الله ؟ اسمع ما يقوله المخلص « ان كنت انا بروح الله أخرج الشياطين » قال روح الله ولئـلا اذا ما سمع احد قوله « روح الله » يتوهم بأن ذلك يدل على الاختصاص وليس على الاشـتراك فى الطبيعة اجاب بولس قائـلا « ونحـن لم نأخـذ روح العـالم بل الروح الـذى من الله »

(اكو ٢ : ١٢) وقد يقال له أيضا روح الآب كما قال المسيح لرسله القديسين « لا تهتموا كيف او بما تتكلمون لأن لستم أنتم المتكلمين بل روح أبيكم الذى يتكلم فيكم » (مت ١٠ : ١٩و٢٠) كما قال روح الله واتبع الكتاب قائلا الروح الذى من الله هكذا يقال له روح الآب ولكيلا نتوهم بذلك على سبيل الاختصاص اكد ذلك المخلص قائلا « متى جاء المعزى ٠٠ روح الحق الذى من عند الآب ينبثق » (يو ١٥ : ٢٦) هناك قيل فيه من الله وهنا قيل من الآب فالقول الذى أورده عن ذاته بقوله (لأنى خرجت من قبل الله » (يو٨:٤٢) هذا نفسه قاله عن الروح القدس اذ قال الذى من عند الآب ينبثق فالروح القدس اذا هو من الله وروح الآب ومن الآب ينبثق وما معنى قوله من الآب ينبثق ولماذا لم يقل انه من الآب يولد ؟ فنقول لا ينبغى أن نعتقد الا بما كتب فالابن ولد من الآب والروح القدس منبثق من الآب وانت تطلب منى بلا بد الفرق ما بين ولادة ذاك وانبثاق هذا فأجيبك انك لما سمعت انه ولد عرفت أيضا انه ابن وعرفت أن الأقنوم الأول سمى الآب والأقنوم الثانى يسمى الابن باسمين مكرمين بالايمان ومحفوظين بفكر حسن العبادة ٠ وأما ماهى قوة لفظة ينبثق ؟ فالكتاب لم يقل عن الروح انه ولد لئلا يسمى ابنا فقال الروح القدس الذى من الآب ينبثق أى منبثقا كالماء المنحدر من ينبوع كما قيل فى شأن الفردوس لأن نهرا كان يخرج من عدن وينبع فالآب يقال له ينبوع ماء حى حسب قول ارميا النبى القائل « ابهتى أيتها السموات من هذا واقشعرى ٠٠٠ لأن شعبى عمل شرين تركونى أنا ينبوع المياه الحية » (ار ٢ : ١٢ ، ١٣) والاله الكلمة اذ ختم بأن الآب هو ينبوع الماء الحى ذكره أى الروح منبثقا من ينبوع المياه الحية فقال الذى من قبل الآب ينبثق فمن المنبثق ؟ الروح القدس وكيف ؟ كمن ينبوع ماء وقد سمى الروح القدس ماء من قول المخلص « من آمن بى كما قال الكتاب تجرى من بطنه انهار ماء حى » واذا فسر هذا الماء الانجيلى قال « قال هذا عن الروح الذى كان المؤمنون به مزمعين أن يقبلوه » (يو ٧ : ٣٨و٣٩) فان كان البشير يوحنا اذ فسر الروح القدس قال الماء الحى والآب يقول تركونى أنا ينبوع المياه الحية فالآب اذا هو ينبوع الروح القدس ولذلك منه ينبثق والحال انه سمى روح الله والروح الذى من الله وروح الابن واكرر القول روح الله والروح الذى من الله وروح الآب والروح الذى من قبل الآب وروح الرب وقد شهد أيضا اشعيا عن الرب المسيح قائلا « روح الرب على لأنه مسحنى » (لو٤:١٨) وبولس يقول « وأما الرب فهو الروح وحيث روح الرب هناك حرية »

(٢ كو ٣ : ١٧) فان كان حيث يحضر تكون الحرية فليس هو عبدا وان كان الذى يحل فيهم الروح القـدس يحلهم من نير العبودية ويهبهم وجـه الحرية فليس هو عبدا ايضا اذ كيف يهب مالا يمكنه كيف يكون مانح الحرية عبـدا انما سمعت بولس القـائل « لأن ناموس روح الحيـاة فى المسيح يسوع قـد اعتقنى » (رو ٨ : ٢) ايعتق العبيد الروح الذى ما يمتلك الحرية فى طبيعته فان كان خلق وتعبـد فهو ما يعتق فـلا يتفلسف الهراطقة نحونا وليعلموا أن الروح غير مخلوق ولا هو عبـد اذ بين الكتاب انه روح الله والروح الذى من الله وروح الآب والروح الذى من الآب ينبثق كما سبق ويسميه ايضـا روح الابن كمـا يقول بولس « اذ كنتم ابنـاء أرسل الله روح ابنه الىقلوبكم هاتفا يا أبا الآب وفى موضع آخر قال « وأما أنتم فلستم فى الجسد بل فى الروح ان كان روح الله ساكنا فيكم » (رو ٨ : ٩) فاتضرع اليك يا هـذا اصغ الى هـذا الانتظام المقـدس الذى كسلسلة مقدسة روحية منتظمة كمن قوة مثلثلة ذكر بولس الطبيعـة ضاما فيهـا عـدم التجزىء وبأسماء مختلفة اثبت القوة الواحـدة بقوله عن الروح أنه الروح وأنه « روح الله » ثم قال ايضا « ان كان أحد ليس له روح المسيح فـذلك ليس له » (عد ٩) فسماه ايضا « روح المسيح » وانما قال هـذا ليوضح أنه ان كان الروح والمسيح سواء ان كان يحضر المسيح والروح فالحالة متساوية اذ قيل عن الروح انه روح الله وروح المسيح وبالنتيجة نقول انه روح القدس وروح الحق روح الأبن وكما قال المخلص أنا هو الحق فيقـال عن الروح أيضا روح الحق لأنه روح الابن كما يقول بولس « ارسل الله روح ابنه الى قلوبكم » (غلا ٤:٦) فهو اذا روح الابن وأيضا الروح الذى اقام الرب يسوع (رو ٨ : ١١) .

الفصـــل الأول

فى وجوب التمييز بين الروح وبين مواهبـه

وهذه الأسماء هى اسماء القوة الطاهرة اى قوة الروح القدس المسجود له لأنه قـد توجد اسماء اخرى غير موافقة للطبيعـة لـكنها انما تنـاسب الفعل · القول عميق يحتـاج سمعا صـاغيا اكيدا وامينا لأن الروح سمى ايضـا روح الحيوة لأن المخلص قال انا هو الحق والحياة · ولأن شريعتـه روح الحياة · هـذه اسماء السيادة اسماء الطبيعـة وقـد توجد اسماء اخرى التى لا تناسب للروح القـدس بل تناسب لقوته وفعله اى مواهبه ولكى اوضح المعنى اقول انه اذا منح الروح القـدس لى او لمسيحى آخر بصلوات القديسين تقـديسا فاستمد موهبتـه ليكون روحى وجسدى مقدسين فالموهبة المعطاة لى تدعى روح قـداسة اى موهبة التقـديس وان اعطى الروح القدس موهبـة لمن ليس فيـه حكمة ولمن ليس فيـه معرفة فيمنحه ايمانا فقط لأنه قـد يوجد كثيرون لهم موهبـة الايمـان بالـكتب وهم لا يعـرفون الـكتب ويؤمنون بالـكتب فتـدعى هـذه الموهبة روح الايمان وان اخـذ احد قوة وموهبـة من قبل الروح ليصـدق الوعـد بالخيرات التى تعطى فى الدهر العتيد فهو يأخذ روح الموعـد وان اخذ احد موهبـة حكمة فتدعى تلك الموهبة روح حكمة واذا كان لأحد موهبـة محبة فيقال فيـه انه اخذ روح المحبة وان اخذ احد موهبـة الشهادة فيقـال فيـه روح القوة فمواهب الروح او نعمه تسمى ارواحا لأن الواهب هو الروح القـدس وتكون المواهب والنعمة اسماء مترادفة ولذلك قـد يقول بولس « اذ لم تأخـذوا روح العبودية ايضا للخوف بل اخذتم روح التبنى » (رو ٨ : ١٥) « لأن الله لم يعطنـا روح الفشل بل روح القوة والمحبة والنصح » (٢ تى ١:٧) فهذه تسمى ارواحا كما يقول ايضا « اذ آمنتم ختمتم بروح الموعد القـدوس » (اف ١ : ١٣) ويقـول « اذ لنـا روح الايمان عينه » (٢ كو ٤ : ١٣) فقوله « روح الموعد وروح الايمان » اى نعمة الروح القدس التى منحتهما ·

وان كان احد وديعـا متواضع القلب فقـد اخذ موهبة الوداعة وهى نعمة من الله وذلك ما يقوله بولس « ان انسبق انسـان فاخـذ فى زلة ما

فاصلحوا انتم الروحانيين مثل هـذا بروح الوداعة (اعنى بنعمة موهبـة الوداعة) ناظرا الى نفسك لئـلا تجرب انت أيضـا » (غلا ٦ : ١) وقـد تعطى لآخر قداسـة النفس والجسد وتدعى روح القداسة كما يقول بولس الرسول « بولس عبد ليسوع المسيح المدعو رسولا المفرز لانجيل الله الذى سبق فوعـد به بأنبيـائه ... عن ابنـه الذى ... تعين ابن الله بقوة من جهة روح القـداسة » (رو ١ : ١ ـ ٤) أعنى بولس الذى شرطن رسولا حسب روح القداسة لأن كثيرين ظنوا أنه يقول ... يسوع المسيح ... حسب روح القداسة » وليس الأمر كذلك بل بولس الرسـول المشرطن حسب روح القداسة وذلك لانه شرطن بعـد قيـامة المسيح يسوع لأن باقى الرسل شرطنوا قبل الآلام وهذا بشرطن بعد القيامة ولذلك يقول حسب روح القداسة .

واقول قولا آخر وهو اننا عندما نبتدىء أن نقول جميعنا عنـد تكملة الأسرار « أبانا الذى فى السموات » فنكون أخذنا روح البنوة اى نعمة روح القـدس .

وبالجملة فالروح القدس كما يسميه بولس الرسول هو روح الحيوة روح المحبة روح القوة روح التهذيب روح الموعد روح الايمان روح الوداعة روح النبوة وهكذا يسميه المغبوط اشعيا بقوله « ويخرج قضيب من جـذع يسى » اعنى عصا ملك المخلص لأنه قـد يسمى عهد الملك عصا ثم قال « ويحل عليه روح الرب » وهـذا اسم طبيعـة الروح . ثم ذكر المواهب فقال روح الحكمـة والفهم روح المشورة والقـوة روح المعرفـة ومخافـة الرب » (اش ١١ : ١ و ٢) .

أى أنك اذا أردت أيها المؤمن او اى مسيحى آخر غيرك أن تفسر قولا وكان هنـاك المعنى غامضا خفيـا أعطى الروح القدس فيكشف لك ماخفى من المعـانى فتكون أخذت روح الاستعلان اعنى نعمة كشف الأعمـاق ولذلك اذ شـاء الرسـول لتلاميذه حسن العبـادة ليفهموا معـانى الـكتب قال « ذاكرا اياكم فى صلواتى كى يعطيكم اله ربنـا يسوع المسيح أبو المجـد روح الحكمة والاعلان فى معرفتـه . مستنيرة عيون أذهانكم » (اف ١ : ١٦ ـ ١٨) .

وحيث يجب أن يجاهر المعلم متكلما يدعى روح الحكمة وحيث يجب أن يسمع السامع بفهم يدعى روح الفهم · ففم الكارز فيه موهبة حكمة وقلب السامع فيه موهبة الفهم كما قال المرتل « فمى يتكلم بالحكم ولهج قلبى فهم » (مز ٤٩ : ٣) وآخر لم يأخذ موهبة التعليم بل نعمة لأن يعطى رأيا ومشورة صالحة · فالمعلم أحيانا لا يعرف أن يعطى رأيا لئلا يرتفع فتعطى لآخر هذه الموهبة أى أن يشير مشورة صالحة مع انه لا يعرف أن يعلم · وهكذا كل واحد يقرض الآخرين ويقترض منهم · فموسى أخذ روح الحكمة والتعليم ولكنه احتاج لمشورة حميه يثرون (خر ١٨ : ١ـ٢٣) وموسى خضع لمشورة يثرون الذى كان كاهنا للأصنام ولكن لما رجع من الضلال وعرف الله أعطى منه تعالى موهبة المشورة الصالحة وهكذا صار يثرون صورة صالحة للكنيسة التى من الأمم لأن فهم الأمم قد يفوق فهم أصحاب الشريعة ·

وكل واحدة من هذه المواهب كانت تعطى حسب الحاجة اليها ولعمرى حين أمر الله بصنع خيمة الاجتماع لم تكن الحاجة داعية الى موهبة التعليم بل الى موهبة الصناعة فأعطى الله بعض الاسرائيليين تلك الموهبة كما قال تعالى « قد دعوت بصلئيل بن أورى بن حور من سبط يهوذا باسمه وملأته من روح الله بالحكمة والفهم والمعرفة وكل صنعة لاختراع مخترعات » (خر ٣١ : ٢ـ٤) ·

وبالجملة فان أسماء طبيعة الروح هى كما قلنا روح الله والروح الذى من الله وروح الله وروح الرب وروح الآب وروح الابن وروح المسيح وروح من اقام المسيح روح الحيوة روح الحق وأما أسماء المواهب فهى روح القوة روح المحبة روح التهذيب روح الموعد روح الأمانة روح الاستعلان روح النبوة ·

وأما الهراطقة فاذ جهلوا ذلك عندما يقول الكتاب روح القداسة وروح الموعد التى يشار بها الى المواهب ينسبونها للطبيعة قائلين ان الله قد أعطى والروح وهب فيتخذون أسماء المواهب ويصعدونها الى الطبيعة وبذلك تخطوا الحق وحادوا عن الصواب فاظلم عقلهم العديم الفهم زاعمين انهم حكماء فحمقوا ·

الفصل الثانى

فى معنى قول السيد المسيح عن الروح « ياخذ مما لى »

ومن الكتب نتعلم عن الروح فنقول ما قاله المخلص عن الروح القدس « ومتى جاء المعزى الذى سأرسله انا اليكم من الآب روح الحق الذى من عند الآب ينبثق فهو يشهد لى » (يو ١٥ : ٢٦) وقال أيضا « ٠٠ واما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم الى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ٠٠٠ انه ياخذ مما لى ويخبركم » (يو ١٦ : ١٣و١٥) فبهذه الكلمة الأخيرة يحتج الكافرون ويقولون ان الكتاب أوضح ان الروح تحت سلطان الابن لأنه يقترض منه ما يعطى فاحذر كلامهم ولا تنظر الى لفظ كلام الله بل الى معناه لأنك اذا رأيت أدوات البناء مبعثرة ظهرت لك مشوشة أما عند الصانع فكلها موافقة ويضع كل شىء فى موضعه ومن ثم يظهر لك حسن البناء هكذا لما يتكلم الوحى عن الابن والروح لا تنظر الى الألفاظ المفرقة بل الى المعنى المكون منها لأن الابن والروح قوتهما واحدة وحياتهما واحدة وحكمتهما واحدة ٠ فلما سر الابن ان ياخذ جبلتنا امتلىء من الروح القدس ليس لأنه أقل من الروح القدس بل لأنه وجب للجسد أن يأخذ حلول الروح بالرسم البشرى ليس لأن الاله الكلمة ما كان قادرا أن يقدس الجبلة التى اخذها فان كنت تتصل الى هذا القول فالابن يكون زائدا ايضا لأنه كان يكفى ان الآب يقدس الجبلة فهل ان الآب كان عاجزا عن ذلك فاستمد الروح مسعفا ؟ كلا بل لأن طبيعة واحدة هى الفاعلة الأشياء كلها فى الكل فمنها ما يفعله الآب وينسب للطبيعة كلها ومنها ما يفعله الروح القدس وينسب للطبيعة كلها وبالنتيجة يقال ان الطبيعة بذاتها متساوية ومتفقة ممتلئة من السيادة السلطانية وعجيبة غير مفتقرة ولا ناقصة لا تامية ولا منتقصة ما تقبل الزيادة ولا التصغير ٠

غير أن الكلمة المتجسد رسم جسده بالروح لتكون العجائب التى يصنعها منسوبة للروح القدس الساكن فيه ٠ فناسوته هيكل مقدس فهو انسان لأجلنا واله لذاته وانسان لمحبة البشر اخرج الشياطين واراد أن اخراج الشياطين ينسب للروح القدس كرجل قديس حظى بالروح القدس واذ دخل الى الهيكل تناول كتاب اشعياء النبى وقرأ ماكتب فيه من اجله

قال « روح الرب على » فهذا لا يناسب للاله الكلمة بل للناسوت ولذلك قال « لأنه مسحنى » كما قال بطرس الرسول « الذى مسحه الله بالروح القدس » يوحنا المعمدان قال « رأيت الروح نازلا عليه شبه حمامة » ولا يعقل أن الروح ينزل على اللاهوت ولكنه على الجسد واذ اعتمد للحال صعد من الماء واخرج من الروح الى البرية · كان الروح القدس للجسد كمرشد ليعلمنا أن جسده لم ينقد بشهوة بل بالروح لنكون نحن هكذا · جربه الشيطان فى البرية فانتصر عليه ولم ينتصر اللاهوت بل الناسوت لأن اللاهوت لايجرب ولا يحارب بل هو ضابط الكل دون تعب ·

فالناتج اذا أن الجسد كان فيه الروح القدس ليس فيه احدى المواهب مثلنا اعنى الواحد حكمة والآخر معرفة بل كان حاويا المواهب كلها · حقا لم يأخذ كما فى الرسل والأنبياء اعنى موهبة دون أخرى بل جميعها لأن الانسان ما يمكنه أن يسعها جميعها أما فى جسد المسيح فكانت المواهب والقوات بأسرها فيما يختص بجوهر البشر · وهيكله مملوء من كل نعمة فكانت له نعمة شفاء الأمراض واخراج الشياطين وقيامة الأموات والنبوة وفعل الحق هذه كلها كان قادرا عليها · كان له كمال المواهب فكان من لازم الضرورة أن نستمد نحن من الجسد السيدى على جهة ما كمن ينبوع يتدفق على الرسل والأنبياء وبولس يقول « فانه فيه يحل كل ملء اللاهوت جسديا » (كو ٢ : ٩) فلم يقل أن فيه سكن اللاهوت على الاطلاق بل كل ملء اللاهوت اعنى ساير مواهب اللاهوت ولكيلا يظن أحد انه سكن فى الاله الكلمة قال « جسديا » أى سكن فى جسده ·

فالناتج اذا أننا من امتلائه نقترض جميعنا لأن الكتاب يقول ان الروح كان نازلا وثابتا عليه فلم يقل واهبا له موهبة واحدة بل كله ثابتا عليه ثم اذ شاء أن يوضح يوحنا أن المخلص لم يأخذ موهبته كانسان قال ان « الآب يحب الابن وقد دفع كل شىء فى يده » (يو ٣ : ٣٥) فنحن اذا من ملئه نأخذ (يو ١ : ١٦) لأنه مملوء نعمة وحقا (عد١٤) فالجسد السيدى لامتلائه نستقى منه كمن ينبوع ومنه نقترض مواهبنا ·

فاتضرع اليك يا هذا اذا لنتفهم قوله « يأخذ مما لى » فلم يقل يأخذ منى وانما قال مما لى من شىء من مما لى يعطيكم لكنه يأخذ لا مقترضا

بل لـكونه أوعب الينبوع كمبدا المواهب ومن الحوض يستقى ويمنح الكافة المواهب ومن أين يتضح هذا أى أن الروح من مواهبه يأخذ ؟ لما أوعب موسى من المـواهب قال « لا أستطيع أن احتمل وحـدى ثقل هـذا الشعب اختر لك آخر » فقال له الله « انتخب سبعين شخصا وآخـذ من الروح الذى فيك واجعل فيهم » فلم يقل آخـذ منك بل من الروح الذى فيك « آخـذ مما لى » قال الله « اسكب من روحى فى تلك الأيام على كل بشر فيتنبأون » فان كان الله أخذ من موسى واقرض فالروح أيضا أخذ من الابن واقرض لأنموسى كان رسم المسيح · فـكما أن موسى أخـذ منه السبعون هكذا ومن المسيح اقتبلت المسكونة مواهب الروح القـدس ومن هـذا نفهم قـوله « يأخذ مما لى » من التى وهبها لى أنا الانسـان الربانى وحـدى الذىأتى واستقر فى الذى مسحنى الذى قدسنى الذى اخرجنى الى البرية وردنى ظـافرا يأخذ مما لى ويخبركم ولـكيما يبين انه لم يذكر الروح القـدس لذلك قلت يأخذ مما لى لأن الله قدس الجسد بالروح القدس أى ارسل الآب موهبة الروح القدس الى جسد المسيح فاذا وافت النعمة وضـعت المواهب كلهـا فى المسيح قال « يأخذ مما لى ويخبركم » فمـا هو اذا قوله انه لا يتكلم من عنـــده بل كل ما يسمعه يخبركم به · قـد قلنـا قبل هذا ان شىء آخر هو الروح القـدس وشىء آخر هى الموهبة وشىء آخر هو الملك وشىء آخر هو انعام الملك ·

الفصـل الثـــالث

فى نقض هرطقتى اريوس ومكدونيوس

من يتقدم للحرب على اعداء كثيرين لا يدرى ايهم يطعـن اولا ونحن نحارب الأريوسيين ناكرى لاهوت المسيح والمـكدونيين ناكرى لاهوت الروح· وقد سبق أن نقضنا كلام الأريوسيين ببراهين قـوية كما تشهدون ولعلـكم تريدون منى أن أبين ضلال المـكدونيين الذين يقولون انهم موافقون امانة مجمع نيقيـة ولـكنهم يتشبثون بقول المسيح السابق عن الروح « انه يأخذ مما لى » المسيح قـد سبق وقال عن ذاته ايضا « لأنى لم أتكلم من نفسى » (يو ١٢ : ٤٩) وهـذا ما يحتج به الأريوسـيون · وكـــلا الأريوســيين والمـكدونيين قـد حسبوا منكرين للاهوت الابن والروح « لأن من ليس له روح المسيح فذلك ليس له » ·

تسـالنى ايهـا الأريوسى كيف أن المسيح لا يتكلم من ذاته ويسـالنى

المـكدونى كيف يأخذ الروح لمـا للمسيح فاصغوا الى وانا اتكلم بارتعـاد لأنى اتكلم فى أسرار عظيمة تحتاج الى ارشاد الروح نفسـه · فأخشى أن أسير بالسفينة الى لجـة لا غاية لها لأن السفينة اذا كانت على أتم استعداد ولـكن ليس هناك نسيم يسيرها تقف · هكذا اذا كان اللفظ فصيحا والعبارة بليغة لا قيمة لهما فى التعبير عن الأسرار الالهية بدون ارشاد الروح القدس فلنرتشد بالهامه ليجعلنا نقنع المخالفين لأنى اشهد لهم بالحق لـكى أكون بريئا اما الله وكمـا قال بولس « انى برىء من دم جميعـكم » هكـذا انا اقول لهم ·

لماذا قال المسيح « لأنى لم أتكلم من نفسى » معلوم أن قبل مجيئه له المجد ظهر مسحاء كذبة كثيرون منهم توداس ويهوذا الجليـلى وغيرهمـا (اع ٥ : ٣٦و٣٧) ونفس المخلص قال « جميع الذين أتوا قبلى هم سراق ولصوص » (يو ١٠ : ٨) فقـد أتوا مدعين أنهم المسيح ويحاولون اقنـاع الشعب بذلك وظهر كل واحـد منهم فى وقت غير وقت الآخـر فلهـذا قال المسيح « أنهم سراق ولصوص » وأن الخراف لم تسمع لهم ثم قال « خرافى تسمع صـوتى وتتبعنى » وذلك لأن أولئـك لم يتكلموا بكلام الله بل بكلام انفسهم أما المخلص فلما حضر لم يفارق الناموس ولا ترك الأنبياء بل كان دائما يستشهد بأقوالهم فلهـذا لم يقل أنه يتكلم من عنـده بل من الانبيـاء موضحا الفرق بينـه وبين من سبقوه فانهم أتوا باسم المسيح ولـكنهم لم يتكلموا من الناموس ولا الأنبياء بل من قرائحهم تكلموا بالضلال فلذلك قال المخلص « لأنى لم أتكلم من نفسى » كمثل أولئـك ولم أخـرج عن الشريعـة كما خرجوا هم ·

هكذا نحن اذا راينـا هراطقـة يتحركون بتعاليم ارسطوطاليسية أو افلاطونية نقول نحن نتكلم بكلام المسيح لا بكلامنا بعكس أولئك فانهم يتكلمون بكلامهم وهـذا علامة أنهم أنبيـاء كذبة كما قال الله بلسان ارميـا النبى « لأنهم انما يتنبـأون لـكم باسمى بالـكذب · أنا لم أرسلهم يقول الرب » (ار ٢٩ : ٩) ·

فمن حيث أن الأنبياء الكذبة كانوا يكرزون من عندهم والمخلص مقصيا

التشامخ قال « لأنى لم أتـكلم من نفسى » لأنهم كانوا قد ظنوا انه مضل وهذا نثبته أنه لـما كان فى عيد التجديد اختلفوا بشأنه « بعضهم يقولون انه صالح وآخرون يقولون لا بل يضل الشعب » (يو ١٠) ولـما وضع المخلص فى القبر قال اليهود لبيلاطس « قـد تذكرنا أن ذلك المضل قال وهو حى انى بعد ثلاثة أيام أقوم » (مت ٢٧ : ٦٣) فلما ظن اليهود المسيح مضلا أراد أن يثبت لهم صـدق ارساليته من السماء فقال لهم « لأنى لم أتـكلم من نفسى » بل من الناموس والأنبيـاء · لا بل كل ما سمعته من الآب حسب اللاهوت يقصـد بل من قبل التجسد ليزيل ارتيابهم · ويبين لهم الفرق بينه وبينهم وأنهم يتكلمون بما سمعوه من أبيهم ابليس ولذلك يتكلمون بالـكذب أما هو فكلام الله الحق ونفس هذا معنى قوله عن الروح « يأخذ مما لى » ·

لأنه كما ظهر أنبياء كذبة ومسحاء كذبة كذلك سيظهر كثيرون يدعون بأن فيهم الروح القـدس وحلوله فيهم · ولـما ظهر المسيح قال أنا هو المسيح وأبطل وعد الـكاذبين ولـكن الروح لم يتجسد حتى يظهر ويقول أنا هـو الروح الحقيقى ولـكنه حل على المؤمنين على بطرس وبولس · وفى الوقت نفسه ظهر سيمون وادعى أن فيه الروح فمن اللازم أن يعرف الناس الفرق بين الروح الحقيقى والروح الـكاذب · فالوجه لا يدل على ذلك لأن كثيرين ادعوا أن فيهم الروح كما فى وخـدعت النـاس بهم فيشترط اذا أن تكون هناك علامة للتمييز فقال « يأخذ مما لى » أين يكون المتكلم بروح الحق فاذا الابن يكمل أقوال الآب وما يتكلم من عنده والروح يكمـل أقوال الابن وما يتكلم من عنـده فاذا سمعته يقول ارسل لـكم الروح القدس فلا تعنى ذلك حسب اللاهوت لأن الاله اللاهوت ما يرسل وهذه الألفاظ انما هى أسماء الله على الأفعال أسماء خفية لامعة خفيـة بالرتبة ولامعة بالثاوريا أعنى أن كل مرسل يرسل الى تلك الأماكن التى يوجد فيها · افرض أنا المتكلم فى هـذا المجلس ما أقـدر أقول لأحـد أرسلك هنـا · هـذا ليس ارسال بل جلوس معى أو حضور عنـدى فان كان الله هو موجود فى كل مكان لأنه يقول أنا مالىء السموات والأرض فالى أين اذا يرسل من هو موجود فى كل مكان ان صعدت الى السماء فأنت هنـاك وان نزلت الى الجحيم فأنت هناك أيضـا وان اتخذت له أجنحة وسكنت فى أواخر البحر فهنـاك أيضـا يدك تهدينى ويمينك تضبطنى · فالله قـد يرسل ولـكن أليس هو فى كل محل والمرسل ليس هو فى كل محل · ارسل الله ابنـه الى العالم الا أن العالم من الابن

كون فلهذا اذا جاء الى العالم فليس كمن لم يكن قبل ذلك فى العالم لأن يوحنا يقول « كل شيء به كان · والعالم به كون » فكيف اذا أرسل الى العالم ؟ وأيضا ان كان أرسل المرسل وبقى مرسله فوق والمرسل تحت كيف قال الذى أرسلنى هو معى ؟ كيف أرسل القائل « أبى فى » ثم كيف أرسله؟ فاذا عندما يقول أرسل اليكم الروح القدس أعنى موهبة الروح القدس ولكيما تعرفوا أن الموهبة ترسل والروح مايرسل قال المخلص للرسل « أقيموا فى أورشليم الى أن تلبسوا القوة من الأعالى » و « ستأخذون قوة متى حل الروح القدس عليكم » الا أن القوة الممنوحة هى خلاف الروح المانح لأن هذه كلها يفعلها الروح الواحد نفسه موزعا لكل واحد ما يخصه كما يشاء وأما أنت فما يمكنك أن تثبت الروح القدس مرسلا باللاهوت مجردا ·

من الذى قال هذه الأقوال الآب أم الابن ؟ انظر كيف ينطق بالتعاليم الانجيلية ولهذا يصح له أن يقول انى لست أتكلم من ذاتى بل بروح الله ويحرض على ذلك أيضا روح التواضع وانكار الذات ·

ومفاد قول المسيح « يأخذ مما لى ويخبركم » أن يعطيهم هذه العلامة لمعرفة الكارز الأمين من الكاذب لأن الذى يقول أن فيه روح الله ويتكلم مطابقا للانجيل فهذا اتبعوه وأما الذى يخالفه فلا تصغوا له · فالذى يكرز بأقوال المسيح يكون فيه الروح القدس لأنه « لا يستطيع أن يقول أحد المسيح رب الا بالروح القدس » وبالعكس كما جاء مانى الضال وادعى انه هو المعزى الذى وعد به المسيح ولكنه علم بأن الشمس والقمر يخلقان وأنهما يجتذبان الأنفس ويصعدانها · فأين قرأت هذا فى تعاليم المسيح ؟ فهو اذا يتكلم مما له عنده بعكس روح الله الذى كانت تعاليمه وتعاليم المسيح سواء حتى أن قوله له المجد « يأخذ مما لى ويخبركم » نفهمه بمعنى أن ما قلته لكم هو يحققه · وكما أن السيد المسيح كان يكمل الناموس والأنبياء هكذا الروح القدس يكمل انجيل المسيح وكما حقق المخلص الناموس هكذا حقق الروح كلام المسيح · فكلما كتب فى الناموس تممه المسيح وكلما هو فى تعليم المسيح تممه الروح القدس لا لأن أقوال الآب فى العهد القديم ناقصة فجاء المسيح ليكملها بل ظهر فأكدها هكذا الروح القدس ظهر فأكد أقوال الابن كيف نثبت هذا قال المخلص « ان لى أمورا كثيرة أيضا لأقول لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن · وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم الى جميع

الحق » (يو ١٦ : ١٢و١٣) فلذلك قال المخلص « يأخذ مما لى » لأنه سيقول لهم مالم يقله المسيح ·

إرسال الروح قـد يحتسبه الهرطوقى حقـارة لأنه لا يفهم أن الروح يرسل ولا ينتقل لهذا كتب أن الله سكب روحه اعنى موهبة الروح القـدس فاللاهوت ما ينسكب بل الموهبة ولذلك يتضح أن الذى ينسكب ليس هو الروح القـدس بل نعمة الروح الالهى قال المرتل « انسكبت النعمـة على شفتيك » فالنعمة تنسكب وليس واهب النعمة فالناتج اذا أنه ليس لكلام الهراطقة قيمة وأما أنت فاكرم الروح القدس الذى أخذته · قـد قلت مرارا كثيرة انكسبت اذ بابيك المسيح أخذ منك المسيح جبلتك وأعطاك هو روحه · كرم هو جبلتك اذ اجلسها عن يمين الآب فهكذا مجد الروح القدس الذى يسكن فيك · بهذا التعليم نطق الأنبيـاء وعلم الرسل واعترف الشـهداء وآمن الـذين حسنت عبادتهم والكنيسة مؤيدة بذلك والمجد به هزم والمؤمن قد اقتنع والمسيح قد تمجد لأن له المجد والاكرام والسجود مع الآب والروح الكلى القـداسة المحيى الآن وكل أوان الى دهر الداهرين آمين ·

المقـــالة الثالثـــة

من مقالات ومواعظ يوحنا فم الذهب

وهى من جملة أقواله لمـا كان مكنودا فى المنفى

فى المتشككين لعدم اقتدارهم على استطلاع كنه حقيقة الحوادث الجارية أو التى فوق العـادة

مقـــدمة

قد علمنا أن الأطباء اذا اعتمدوا أن يداووا أناسا مصابين بالحمى أو سواها من الأمراض يطلبون أولا مشاهدة المريض لأنهم لا يمكنهم ولا يتيسر لهم أن يوصلوا اليه نفعا بأدويتهم اذا كان بعيدا وهذا الأمر تقتضيه صنعة الطب وأمراض الأجسام ٠

لـكن نحـن اذا اردنا مداواة واحـد أو اكثر من المشككين أو جميع المسكونة كما هو مرغوبنا وجل مبتغانا فلسنا نحتاج ما احتاجه أولئـك ٠ فلا نلتمس أن ندخل الى منزل أحد السقماء ولا أن نعرف كيف حاله ٠ ولا أن نشاهده بذاتنـا ولا نستصحب معنا آلات المعالجة ولا نسبب نفقات ولا نكلف المريض الى ابتياع أدوية ٠

ومع كل ذلك قد يكون أنهم لا يعرفوننا وربما كانوا مشتتين فى آفاق المسكونة بين طوائف الأعاجم أو كانوا فى الفقر والمسكنة حتى أنهم فى عوز الى القوت الضرورى فما فى كل ذلك مانع لنـا أو تعويق عن مداواتنـا لهم لـكننا ونحن فى محل واحد نطرد هـذا المرض بلا آلات معالجة ولا أدوية ولا أطعمة ولا أشربة ولا أموال ولا أسفار طويلة على المرضى وعلينا ٠

وان سألت وكيف يتم ذلك وباية حال ـ اجبتك باصـلاحنا من كلامنا الدواء الصائر للمرضى بكل الأمراض دواء أفضل من الأنواع المذكورة آنفا للمعالجة بأسرها لأن هذا الدواء يذى أكثر من الخبز وينجح أوفر من الدواء

ويكون أقوى من كى النار ولا يحدث وجعا · فيحجز من الأفكار الخبيثة مجاريها المنتنة ويقطع الأعضاء المتعفنة أرهف من قطع الحديد بدون وجع ·

وهو يفعل ذلك بدون انفاق مال ولو يسير ولا يصده فقر مهما كان مدقعا فهذا الدواء اذا ركبناه أرسلناه الى الناس أجمعين ·

فينالون الشفاء ان أصغوا فقط اليه تمام الاصغاء باخلاص النية والمحافظة عليه ·

البـــاب الأول

فى أن يلزمنا ضرورة أن نذكر العلة التى منها تتولد الشكوك

اذا كانت معرفة المريض سبب مرضه فى الأمراض الجسدانية من شأنها أن تفيده فائدة ليست بقليلة ان لم تقل تخلصه من مرضه بالكلية لأنه اذا عرف السبب فانه بعد تخلصه من المرض الذى استحوذ عليه لا يعود يسقط فيه فيما بعد · فاذا عرف السبب الذى أوقعه فى المرض احترز منه لئلا يسقط ·

فهلم بنا نلزم الذين قد مرضوا هذه الأمراض وأمثالها أن يحترزوا لأنفسهم منها اذ نعرفهم من أين يكون فيهم مرض التشكيك المذموم لأنهم عرفوا هذا المرض وابتغوا أن يحترزوا منه أبلغ الاحتراز فيستخلصون من هذا المرض ومن سواه فى الحاضر والمستقبل وذلك لأن من طبع هذا الدواء أن يشفى المرض الحاضر ويحمى من أمراض أخرى تعرض · لأن العوارض التى تشكك الضعيف ليست هى واحدة ولا اثنتين ولا ثلاث لكنها كثيرة فى حياتنا الحاضرة فولحالة هذه يجب على الذين قد صبروا أن يعرفوا ما نقوله ويحفظوه ليعتقوا من هذه كلها على ماذكرت آنفا ان شاءوا · وانناسنصلح هذا الدواء من الكتب الالهية ومن الحوادث التى عرضت لنا فى عمرنا حتى يصير استعماله عاما حتى عند الذين لايصغون الى الكتب الالهية ان أرادوا ولقد قلت مرارا أن هذا الشفاء لايتهيأ بالزام وغصب للذين لايريدونه ولا يقتبلون الوحى الالهى وأكرر ذلك الآن هنا وأقول ان الأجدر بهم أن يقبلوا الوحى الالهى أكثر من اقتبالهم البرهان من نفس الفعل لأنه يجب علينا أن نصدق أحكام

الله عز وجل ونعتقدها أهلا للتصديق أكثر من الأشياء المنظورة ولهذا السبب أصعب العقوبة مهيأ لهؤلاء اذا لم يصطلحوا لأنهم فازوا بالكتب وما استفادوا منها نوع منفعة هذا تأثيرها فلكيلا يصيبنا هذا المصاب هات لنمارس مابه الصالح لنا بعد أن نصف علة المرض ٠

الباب الثانى

فى أن البحث عن حكمة الله الممتنع وصفها والتنقيب عليها مملوءا خطرا وهوسا

فان استخبرت عن علة هذا المرض الجسيم أجبتك هو العزم الباحث المنقب ورغبة الواحد منا أن يعرف جميع علل الحوادث كافة ومحاولته أن يبحث عن عناية الله وسياسته المحتجز ادراكها وأن ينقب عليها بافراط وقاحته ٠ على أنه من منا احكم من بولس الرسول أفما كان هذا الفاضل اناء مصطفى أو ما استعد من الروح القدس نعمة عزيزة لاتوصف أو ماكان المسيح متكلما فيه أو ماخاطب الهنا فى الفاظ يحتجز التكلم بها أو ماسمع وحده كلمات ما يمكن أن يقولها أحد من الناس أو ما خطف الى الجنة أو ما أصعد الى السماء الثالثة ٠ أو طاف البر والبحر أو ماستمال العجم الى القبول منه اذ تفلسف لهم ٠ أو ما حوى أفعال الروح القدس الكثيرة المتعددة أو ما أصلح جموعا كثيرة من الناس وثقف مدنا عديدة ٠ أو ما جعل الهنا المسكونة كلها فى يديه وحملها به ولكن مع ذلك اسمع هذا الرجل الغزير فضله والسامى قدره ومحله الحكيم الروحانى المقتدر هذا الاقتدار الكلى المتمتع بهذه المواهب الجليلة كيف انذهل وكيف دهش وكيف ولى مسرعا لما حصل فى البحث عن عناية الله ٠ وليس عن عنايته كلها بل اندفع الى جزء يسير منها فما تصفح كيفية عناية الله بالملائكة ورؤساء الملائكة والكاروبيم والسارافيم والقوات الأخرى غير المنظورة ولا كيفية عنايته تعالى وسياسته للبرايا العادمة النطق والأشجار والنباتات والبذور والأهوية والرياح والفصول والأوقات والعيون والأنهار ولاكيف يعتنى بالولادة بذات طبيعتها وبنمو براياه وطعامها ولا فى سائر أفعاله التى من هذا القبيل بل تناول جزءا يسيرا من سياسته لليهود والوثنيين فاستغرق كلامه عند تعليمه كيف دعا اللهالذين من الأمم وكيف اجتذب الذين من اليهود وكيف اكتسب الخلاص كلا الفريقين

برحمته تعـالى فانه اذا رأى لجة واسعة عميقة قـد انفتحت لديه وأراد أن يطلع من عمق قريب على عنايته هذه فيهذه الجهة بأتمما يغتاص وصفه من وصف سياسته تعالى حائرا كمن فى ظلام دامس واستعجب من حكمة الله وعنايته وامتناع وصفها وتعذر عبورها والغوص فيها فوهى جلده ودهش منها وطفر مسرعا وأبدى أصوات الهتاف بحيرة وذهول قائلا « يا لعمق غنى الله وحكمته وعلمه » (رو ١١ : ٣٣) ثم أوضح أنه عرف عمقها ولا يقـدر على معرفة كميته بقوله « ما أبعد أحكامه عن الفحص وطرقه عن الاستقصاء » (رو ١١ : ٣٣) .

فقال انها لا تدرك ، لا بل لا يستقصى عنهـا فضـلا عن ادراكها . وان البحث عن مبادىء هذه السياسات واثار هذه الأحكام ليس فى اسـتطاعة أحدنا فضـلا عن البلوغ الى غايتهـا فبعد أن قال « ما أبعـد طرقـه عن الاستقصاء » قضى عليه الدهش والعجب أن يمجد الله لذلك فقال « لأن من عرف فكر الرب أو من صـار له مشيرا أو من سبق فأعطاه فيكافا » (رو ١١ : ٣٤و٣٥) ويستفاد من قوله أن الله عين الأشياء الصالحة وعلتهـا ليس يحتاج الى شريك ولا الى مشير فلا حاجـة به الى اقتبـاس معرفة أو فهم من أحد ليجترح بها العجائب التى يجترحهـا كلهـا لـكنه هو بدء كل الصالحات وعلتها وأصلها وينبوعها وهو خالق البرايا كلها ومبديهـا من العدم الى الوجود وهو ضابطها بعد ابداعه اياها ويعتنى بهـا طول مدى دوامها على نحو ما يشاء فقد قال بعد ما ذكر آنفا « لأن منـه وبه وله كل الأشياء » (رو ١١ : ٣٦) فهو اذا علة الموجودات ومبدعها وأردف قـوله بقوله « له المجد الى الأبد آمين » (رو ١١ : ٣٦) .

ثم اذ ذكر موهبته الواصلة الينا قال « شكرا لله على عطيته التى لايعبر عنها » (٢ كو ٩ : ١٥) وعند ذكر سلامه قال أنه فوق كل عقل فضلا عن كونه لا يوصف ولا يخبر به « وسلام الله الذى يفوق كل عقل يحفظ قلوبكم » (فى ٤ : ٧) فان كان عمق غناه وحكمته وعلمه لا يعرف وأحكامه لاتستقصى وطرقه لا تدرك وموهبته لا تنعت وسلامه يفوق كل عقل ليس عقلى وعقلك وعقل فلان وفلان ولا عقل بطرس وبولس بل عقول الملائكة ورؤساء الملائكة والقوات العلوية كلها فأى اعتذار لك قل لى أى عضـو تنال اذا استعملت جنونا وغتوا كهذا فتوخيت الوصول الى الأشـياء التى لا يستقصى اثرهـا

وطالبت عناية الله كلها بحجج عما تفعله ؟ فان كان بولس الحائز معرفة جسيمة بهذا المقدار والحاوى دالة عظيمة والمتلىء مواهب غزيرة افرج لهذا البحث وانحرف عنه · وأمر عجيب أنه لم يقدر أن يجده وأعجب من ذلك أنه ما استطاع أن يبحث عن مبادئه اذا كان هذا البحث غير ممكن أيضا · أفما يكون من يسعى فى طريق مضادة لطريق ذلك الفضل مصابا بالجنون الشديد وأحق الناس كلهم بأن يرثى له ·

وهذا الرسول العظيم الالهى قد كتب فى رسالته الى أهل كورنثوس فى وصف المعرفة فبين كيف أننا وان كنا تعلمنا علوما كثيرة فما حوينا من المعرفة مقدارا يسيرا حقيرا جدا فقال غير ماتقدم ما نصه « فان كان أحد يظن أنه يعرف شيئا فانه لم يعرف شيئا بعد كما يجب أن يعرف » (١ كو ٨ : ٢) ثم أوضح انه ينقصنا ويعوزنا قسم عظيم من المعرفة وان أكثرها مخزون فى الزمان المنتظر كونه وانما خولنا الآن جزءا يسيرا قال « لأننا نعلم بعض العلم ونتنبأ بعض التنبؤ ولكن متى جاء الكامل فحينئذ يبطل ما هو بعض » (١ كو ١٣ : ٩ ، ١٠) وما وقف عند هذا الحد فى قوله لكنه جعل هذا التحديد بينا بأمثلة أوردها لايثاره أن يبين الحد الأوسط فيما بين هذه المعرفة وفيما بين تلك المعرفة وان القسم الناقص عظيم قال « لما كنت طفلا كطفل كنت أتكلم وكطفل كنت أفطن وكطفل كنت أفتكر ولكن لما صرت رجلا أبطلت ما للطفل فاننا ننظر الآن فى مرآة فى لغز لكن حينئذ وجها لوجه » (١ كو ١٣:١١ ، ١٢) أعرفت الحد الوسط فهو ما بين الطفل والرجل الكامل وبين من ينظر بمرآة وفى رمز غامض · وبين من ينظر الأشياء نظرا جليا · فما بالك تلج وتجن اذ تزداد جراءة باطلا على الأفعال الممنوعة · ما بالك لا تقبل من بولس القائل « من أنت أيها الانسان الذى تجاوب الله العل الجبلة تقول لجابلها لماذا صنعتنى هكذا » (رو٩:٢٠) أفرأيت بأية طاعة يطالبنا وأى صمت يطلب منا لانه ما قال هذا القول مبطلا سلطتنا المستولية على ذاتها لا كان ذلك · بل قال هذا القول موضحا أن العزم الطالب هذه المطالب يجب أن يكون والحالة هذه فاقدا صوته كالطين تابعا لما يقتاده الله اليه ولا يكون معاندا له ولا باحثا عليه عنه ولذلك لما ذكرنا بطبيعتنا ذكر طينا وفاخوريا على أن الفاخورى والطين جوهر هو هو بعينه· فان يكن يوجد فى الأشياء التى جوهرها هو هو بعينه طاعة على هذه الصفة فكم بالحرى يجب أن يكون فى الأشياء التى لا يعرف الجزء الأوسط فيما

بين جوهريها ومعرفتها وخواصها الأخرى كلها · فأى عفو ينال من يكون جافيا وقاحا بهذه الصفة حتى أنه يبحث عن أفعال الاله الذى أبدعه · فقـه قال تفهم أيها الانسان من أنت ولذلك قال ألست رمادا وغبارا وترابا أولست دخانا من أنت · ألست طينـا أولست حشيشا فمـا أنت الا زهرة نبـات · لأن هذه الأمثلة كلها توردها الأنبيـاء فى عرض كلامها بتواتر معتمدين أن يثبتوا لنـا حقارة طبيعتنا · فأما الاله الذى أنت باحث عنه فليس بهـالك ولا مستحيل لم يزل دائما على حال واحدة · لم يزل ثابتا غير ذى بداءة ولا نهاية ولا مفهوما متجاوزا عقلنا وقاهرا فكرنا لا يعبر عنه ولا يوصـف ولا يوصل اليـه بل يعتـاض ادراكه من القوات العلوية الطاهرة غير المنظورة غير المتجسمة المتصرفة فى السماوات فضلا عن أنبيائه ورسله وعنى وعنه وعن مثلى ومثلك ·

البـــاب الثـــالث

فى أن الذات الالهية يمتنع ادراكها على القوات العلوية

فضلا عن تعذر ادراكها علينا أيضا

اذا رأيت السيرافيم المتطايرين دون ذلك العرش الشاهق المتعـالى · ساترين بأجنحتهم وجوههم وأرجلهم وأظهرهم وهاتفين هتافا مرعبا ذهولا· فلا تظن أن لهم أجنحة أو أرجلا أو ريشا : لأن تلك القوات غير منظورة · لـكن بهذه الصورة افتكر فى خاصة الجالس على العرش التى يمتنع ادراكها والدنو منها · فانه لا يدرك ولا يدنى منه من تلك القوات غير المنظورة ولا يقاربهم مقاربة · فانما هو لا يقترب فانه ما ظهر حينئذ (أى حين الغرض الذى بدأ به بأول الجملة من وجوده على العرش والسارافيم متطائرين حوله) على ماهو (أى بجوهره الفائق) لأن الله لم يجلس ولا ينحصر فى كرسى ولا يحوى فى مكان · فمـا يستطيعون أن يبصروه جالسا متمكنا على كرسى وهم حوله · وهـذه الأوصاف كلها أوصـاف (يكنى بها عن أنه) مقارب لهم · لـكنهم ما يحتملون البرق الطافر من هنـاك اليهم فيحجبون أبصارهم بحواجز أجنحتهم ممجدين له فقط ومسبحين بهتاف كثير رافعين اليه لحن تقديسهم ذلك السرى · أفما تذهب أنت فتدفن ذاتك فى مكان غامض تغوص فيـه اذا شئت أن تبحث بعتو كثير عن عناية الله الذى لا يوصف ولا ينعت

وادراكه يفوق القوات العلوية . فان أوصافه كلها انما هى واضحة بالتمام لابنه ولروحه القدوس فقط وليست واضحة لأحد غيرهما وهذان الأمران أوضح لنا أحدهما يوحنا الصياد . وأوضح الآخر صانع الخيام وذلك أن يوحنا الصياد ابن الرعد المتمتع باسترضاء الرب جدا وكان محبوبا جدا عند المسيح حتى صار هذا الحب نعتا له وبرهانا عظيما على فضيلته وأوصله الى أن اتكأ على صدر الرب فهذا قال ما يأتى « الله لم يره أحد قط » (يو ١ : ١٨) فاراد بالرؤيا المعرفة أى ما عرفه عارف فى وقت من الأوقات . « الابن الوحيد الذى هو فى حضن الآب هو خبر » (يو ١:١٨) وهذا المعنى ذاته بينه السيد المسيح وحققه بذاته أيضا عندما خاطب محفل اليهود فقال (يو ٦ : ٤٦) « ليس أن أحدا رأى الآب الا الذى من الله هذا قد رأى الآب » والابن لم يزل من الله فهو قد أبصر الآب .

والاناء المصطفى اذ جاء الى وصف تدبيره وأراد أن يذكر الأقوال كلها التى يغتاص التكلم بها ويصف كيف عرفناها قال هذا القول « بل نتكلم بحكمة الله فى سر الحكمة المكتومة التى سبق الله فعينها قبل الدهور لمجدنا . التى لم يعلمها أحد من عظماء هذا الدهر لأن لو عرفوا لما صلبوا رب المجد بل كما هو مكتوب ما لم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على بال انسان ما أعده الله للذين يحبونه » (١ كو ٢ : ٧و٨و٩) . وأنا استخيره قائلا ـ يا بولس كيف عرفنا هذه . ومن عرفناها . وجعل هذه النعم غير المنظورة واضحة لنا . مع أنها لم تسمع بها أذن ولاخطرت على قلب انسان . قل لنا ـ من حمل الينا هذه المعرفة الفائقة وأين هو فيجيبنى بأنه هو روح الله الذى أعلن الله لنا ذلك به (١ كو ٢ : ١٠) وحتى لا يظن ظان أن الروح انما يعرف فقط هذه الأسرار التى كشفها الله لنا به مع انه حائز للمعرفة كلها أردف قوله ذلك بقوله « لأن الروح يفحص كل شىء حتى أعماق الله لأن من من الناس يعرف أمور الانسان الا روح الانسان الذى فيه هكذا أيضا أمور الله لا يعرفها أحد الا روح الله » (١ كو ٢ : ١٠و١١) .

ومعنى ذلك أن الانسان يعرف أمور ذاته ومكنونات ضميره التى يرتبها ويجعلها فى سريرته وخلده ويعرفها كلها بكمال التدقيق . وكذلك الروح القدس له معرفة الله كلها التى لا يستطاع التكلم عنها بالتدقيق . وبقوله أمور الله لا يعرفها أحد الا روح الله اخرج الخليقة العلوية كلها فضلا عن الناس ولزمنا قول الحكيم . « لا تطلب ما يعييك نيله ولا تبحث عما يتجاوز

قدرتك لكن ما أمرك به الله فيه تأمل ... فانك قد اطلعت على أشياء كثيرة تفوق ادراك الانسان » (يش ٣:٢٢و٢٥) ومعنى قوله ان العلوم التى تعلمتها لا تستطيع تعلمها من ذاتك كما أنك لا تستطيع أن تكيف طبيعتك (سليقتك) لمعرفة الأشياء كلها لكنك تسلمت من العلو معرفة أكثر الأشياء لأنها كانت أعظم من قدرتك كثيرا فلذلك يجب أن تدع ما فى فهمك مهملا . ما بالك تحاول فى ذاتك أن تبحث عما هو صعب المنال عليك لأن كثيرا مما قد أدركته يفوق بصيرتك وقد حصلت عليها من جهة أخرى وهذا المعنى يوضحه بولس الرسول بقوله . « أى شىء لك لم تأخذه . وان كنت قد أخذت فلماذا تفتخر كأنك لم تأخذ » (١ كو ٤:٧) فكف اذا عن هذه المحاكمة واذعن لتلك المشورة المملوءة حكمة زائدة على غيرها القائلة « لا تقولن ماهذا أو لم هذا » فان البرايا كلها خلقت لحاجتها .

الباب الرابع

فى أن موسى فى بادىء سفره بلفظة واحدة أبطل البحث المولد الخطر

ولهذا السبب لما كونت الخليقة وتسلمت رتبتها وقام فى الوسط هذا العمل المنتظم فى كافة ائتلافه البديع تقدم الله ليزيل اعتراض المتعنتين والجهلة بلفظة واحدة سد بها المشترع كل لسان متطاول بقوله عن الله انه نظر الخليقة فاذا بها حسنة أمامه وذلك لأن كثيرين سيجدون فى مخلوقات الله ما يذمونه . فان كان النور حسنا فهناك الظلمة . والأشجار فيها ثمر وشوك . والأرض فيها الخصب والجدب والحدائق والجبال والبحار بها الأسماك والحيتان وفيها رياح هادئة وزوابع وحيوانات أنيسة ووحوش مفترسة وهكذا فالله ليسكت لسان المعترض قال « ورأى الله كل ما عمله فاذا هو حسن جدا » (تك ١:٣١) .

واذا كان الصانع يعرف أن ما يصنعه يكون حسنا قبل صنعه أفلا تستطيع حكمة الله المخرجة البرايا كافة من العدم أن تعرف الأشياء قبل أن تكونها أنها جيدة ؟ لأنه لو كان جهلها لما كان ابدعها .

ولملك تقول فلم قيل هذا القول فأقول لك لأجل العلة التى ذكرتها فاذ

قد سمعت القول أن الله أبصرها ومدحها فلا تطلبن فيما بعد برهانا على حسنها وتقولن كيف هى جيدة لأن تحقيق الخالق بأنها حسنة أعظم برهان على حسنها لأن من يريد أن يبتاع أدوية وهو لا يعرفها يريها أولا للطبيب فاذا علم علما يقينا أن ذلك الطبيب قد أبصرها ومدحها فليس يطلب برهانا غير ذلك لفضيلتها وجودتها ولذلك موسى النبى عند ايثاره أن يبطل كل بحث فيما بعد للمعطلين فى أمر الخليقة سبق وأخبرنا أن الخالق أبصر البرايا ومدحها وحكم أنها جيدة حسنة وما قال أنها جيدة فقط لكنه قال انها جيدة جدا فلا تبحثن اذا ولا تفتشن بأفكارك فى البرايا المكونة بعدما مدحها الله · وان لم تكتف بهذا بل تشاء أن تتعمق فى فهم الأشياء دون قول الله فستزج ذاتك الى جدول من الأفكار والى لجج عظيمة مخترعة شتى لنفسك وما تعرف تصنع شيئا أكثر وتدفع بنفسك الى خطر عظيم ولا تقدر أن تجد حدا لهذا البحث لأن فكر الناس ضعيف جدا ينقاد الى الأضداد والناس مضطربون فى أحكامهم فى وصف الخليقة لأن اليونان عظموها أكثر من الواجب لها وتجاوزوا الاعتدال فألهوها والمنانية وغيرهم من ذوى البدع فى الدين قال فريق منهم أنها ليس عمل الاله الصالح وفريق منهم قطعوا أجزاء منها فريدة وصرفوها الى هيولى قد عدمت أن تكون مكونة وحكموا أنها ليست مؤهلة لابداع الله ·

فعلى هذه الجهة كما ذكرت أن استعمل أحد الناس أفكاره المجردة عن ارشاد كلمات الله يضل كثيرا ولا يجد حسنا فى القبح ولا قبيحا فى الحسن لأن ما الذى تظنه عندك أبهى من الشمس ؟ !لا أن هذا الكوكب البهى الخلق يفسد الالحاظ المريضة ويحرق الأرض اذا بعث شعاعه عليها أشد حرارة ويولد أمراضا ويجفف فى أكثر الأوقات أثمارا ويزيل فائدتها ويجعلها أشجارا عديمة أن تكون مثمرة وقد صيرت لنا جزءا من المسكونة خائبا من أن يكون مسكونا فقل لى ما رأيك أفتغيب الشمس من أجل ماذكرناه؟ فينبغى لنا أن نترك أفكارنا تسكن هادية حينما نسمع الكلمة القائلة « ورأى الله كل ما عمله فاذا هو حسن جدا » فبحسب حكمنا أن التنعم والضحك والحصول فى اللذة أفضل فاسمع سليمان الذى مارس كل نوع من النعيم يقول « الذهاب الى بيت النوح أفضل من الذهاب الى بيت الوليمة » والليل عندنا مكروه الا أن فيه راحة لاتعابنا ومخلصا من الهموم وراحة ليست يسيرة من المخاوف والأخطار · فهل المرض عندك حظ ردى فمن أين

كل لعازر ؟ فهل الفقر عندك مذموم فمن أين وفق أيوب ؟ فهـل الضـغطات المتداركة المتصلة رديئـة عندك فمن أين شـاع ذكر الرسل ايما هى الطريق الموردة الى الحيـاة أليست هى الطريق الضيقة الضاغطة فلا تقولن لمـاذا صار هـذا ولأى غرض هـذا لـكن فى تدبيرات الله وفى ابداعاته أودع أنت خالقك وإلهك الصمت الذى يودعه الطين للفاخورى .

البـــاب الخـامس

فى أنه ينبغى لنا أن نوقن أن الله تعالى يعتنى بكافة برایاه وأن الخليقة تحدث المعاندين بجميل عنايته

ولعلك تقول فما رأيك أفما تريد أن أعلم علما يقينا وأصـدق أن الله يعتنى ببراياه كلها فأقول لك أريد ذلك جـدا وابتهل لك به واشـتهيه كثيرا ومعرفته لا تحتاج بحثا عن عنايته وسياسته . فان كنت تريد هذه المعرفة فلا تطلب بحثا وان كنت ترتاب وتشك فىعنايته فسل الأرض والبحر والسماء والقمر اسأل أجنـاس الحى الفاقد النطق المتلونة البذور النباتات الأسماك الفاقدة الصوت الصخور الجبال التلال الروابى الليل النهار لأن عناية الله وسياسته أبين من الشمس بعينها ومن شعاعها وفى كل زمان وفى كل مكان وفى البرية وفى المسكونة وفى العديمة أن تكون مسكونة وفى الأرض وفى البحر وأينما ذهبت تبصر آثار هـذه العناية واضحة كافة عتيقة وجـديدة مبدية من كل جهة أصواتها أفصح من صوتنا هذا الناطق لمن يريد أن يسمعها بالايقان باحسانه ولذلك أوضح النبى حقيقة هـذه الأصوات وقال ليس هى كلمات ولا أقاويل التى ليست تسمع نغماتها وبيان ذلك أن صوتنا انما يصير معروفا عند الذين لغتهم لغتنا فقط ولا يعرف عند الذين لغتهم غير لغتنا فاما صوت الخليقة فيوجد مسموعا عند كافة الأمم الذين من المسكونة .

البـــاب السادس

فى وصف حب الله المتجاوز بافراطه كل حب

ولعمرى أن الحسنى النية لا يكفيهم من الوقوف على أحوال الخليقة أن يعرفوا عناية الله فقط بها بل يتبين لهم من ذلك حبه الشديد لنا لأنه ليس يعتنى بنا على بسيط ذات عنايته لكنه يحبنا وحبه لنا شديد جدا يفوق الوصف ويخلو من الضعف والنقص بل دائما يشتد حرارة ويزداد قوة وليس ممكنا أن يخمد فى وقت من الأوقات · ولكى يبين لنا جليل قدره اتخذ لنا أمثلة من الناس ليس ليبين أن حبه لنا كحبنا بعضنا لبعض بل لأننا لا ندرك حبه كما هو ونستطيع أن نفهمه بعض الفهم اذا مثله لنا بأمثلة معروفة عندنا لذا قال على لسان والنبى « وقالت صهيون لقد تركنى الرب وسيدى نسينى » فورد لهم الجواب حينئذ يقول « هل تنسى المرأة رضيعها فلا ترحم ابن بطنها » فهذا القول معناه كما أن تلك المرأة لا تنسى بنيها كذلك ليس ينسى الله جنس الناس ثم حتى تعلم أنه أورد هذا المثال ليس مريدا أن يبين بهذا المقدار أن حب الله نظير حب الأم لأولادها لكنه على سبيل المثال فقط يشبه حب الأم بحب الله اذ هذا يفوق ذاك بما لا يقاس لذلك قال « حتى هؤلاء ينسين وأنا لا أنساك » (اش ٤٩ : ١٤و١٥) ·

أعرفت كيف تجاوز حبه مقدار حب الأم ؟ وكذلك يتجاوز شوقه شوق الأب الى ابنائه فقد قال النبى « كما يترأف الأب على البنين يترأف الرب على خائفيه » (مز ١٠٣ : ١٣) ويورد هو أيضا صورة الحب هذه اذ قد امتلكها خاصة به الا أن سيد البرايا كلها اذ أوضح أن اهتمام الله يتجاوز هذه الصورة من كثرة وجودها فيه وبمقدار ما بين الضوء باضافته الى الظلام وبقدر ما بين الخبث باضافته الى الصلاح بقدر ذلك الفرق بين صلاح الله وعنايته باضافته الى اخلاص حب الوالد اسمع ما قاله « فمن منكم وهو آب يسأله ابنه خبزا أفيعطيه حجرا أو سمكة أفيعطيه حية بدل السمكة أو اذا سأله بيضة أفيعطيه عقربا · « فان كنتم وأنتم أشرار تعرفون أن تعطوا أولادكم عطايا جيدة فكم بالحرى الأب الذى من السماء يعطى الروح القدس للذين يسألونه » (لو ١١ : ١٣) فبمقدار الفرق بين الخبث وبين الصلاح بقدر ذلك صلاح الله الذى هو أعلى سموا من اشفاق الآباء واهتمامهم ·

فهذه الأمثلة ذكرتها لنقف على عظم وده وله المجد يريد أن يعلن لنا جزيل حبه لذا يقدم لنا الأمثلة الكثيرة على ذلك · وكل مثل منها يدل على معنى أسمى من غيره قال بلسان داود « لأنه مثل ارتفاع السموات فوق الأرض قويت رحمته على خائفيه · كبعد المشرق عن المغرب ابعد عنا معاصينا » (مز ١٠٣ : ١١ و١٢) ويقول أشعيا النبى « لأن افكارى ليست افكاركم ولا طرقكم طرقى يقول الرب · لأنه كما علت السموات عن الأرض هكذا علت طرقى عن طرقكم وأفكارى عن أفكاركم » (اش ٥٥ : ٨و٩) فهذه الأقوال قالها بمعنى أعلى فى وصف اغتفار خطايانا وقوله أننى أغضى عن زيغانكم عن شريعتى أكثر اغضاء وأجزله ثم بين أن اغتفاره عظيم فمثله كما رأيت · ولم يكتف بهذه التمثيلات وحدها ولكنه يحدد كلامه الى تمثيل آخر أعمق غرضا لأنه قال بلسان هوشع النبى « ماذا اصنع بك ياأفرايم ماذا أصنع بك ياييهوذا · فان احسانكم كسحاب الصبح وكالندى الماضى باكرا » (هو ٦ : ٤) والذى يقوله هذا يبين به أنه محب ودود لايكف عن الاحسان لمحبيه · ولم يقف عند هذه الأمثلة لكنه أيضا تقدم الى أبعد غاية منها وأورد مثالا آخر أعظم من ذلك وقال « على نحو ما يفرح الختن بعروسه كذلك يفرح الرب بك كل حين » وهذا عكس غيره من المحبين الذين يكونون فى الابتداء أوفر حرارة وأكثر شوقا ولكنهم فيما بعد ينطفى لهيب حبهم · ولست أكف عن أن أمثل بهذه الأمثلة الانسانية المفهومة لنا حتى تعرف من هذه الأمثلة غزير حبه الحار الخالص الشديد المتقد ناره لأنه اذ مثل حبه بحب الآباء أوضح أنه يحبنا أكثر مما يحبنا أبونا ولما مثله بحب الأم أوضح أنه يودنا أكثر مما تودنا أمنا ولما مثله بعريس وعروس بين أنه يفرح بنا أكثر من العريس بعروسه لأن حبه يسمو بهذا المقدار مقدار ابتعاد السماء من الأرض وأكثر من هذا المقدار ·

وما اكتفى بذلك لكنه تقدم عند أبعد غاية منها الى مثال ادل كثيرا لأن يونان النبى عند تحيره بعد هروبه وبعد مصالحة الله لأهل نينوى واندهاله من أقواله التى هول عليهم بها والتى ما خرجت الى الفعل وعرض له عارض انسانى واكتأب مقطبا أوعز الله الى شعاع الشمس أن تبعث لهيبها أوفز حرارة ثم أمر الأرض أن تخترع له سقفا من البقل وجلله واراحه بزيادة فى اللطف به ثم غمه أيضا بتغييبه هذا السقف عنه ولما أبصره فى تلك الحال وقد تدارك عليه بضجره اسمع ماخاطبه به « أنت شفقت على اليقطينة

التى لم تتعب فيها ولا ربيتها التى بنت ليلة كانت وبنت ليلة هلكت · أفلا أشفق أنا على نينوى المدينة العظيمة التى يوجد فيها أكثر من اثنتى عشرة ربوة من الناس الذين لا يعرفون يمينهم من شمالهم وبهائم كثيرة » (يون ٤ : ١٠ و ١١) فالذى يقوله هذا هو معناه أما اراحك على هذا المثال ظل اليقطينة كما سرنى أنا تخليص أهل نينوى وأما غمك أنت على هذه الصورة انتزاعها وهلاكها كما غمنى أنا هلاكهم الذى كاد أن يكون صادرا عن عزمى ارأيت كيف يتجاوز فى هذه الأقوال تمثيله فانه ما قال أنت تشفق على نبات اليقطينة وصمت لكنه استبثنى بقوله الذى لم تتعب فيها ولا ربيتها لأن الفلاحين من عاداتهم أن يحبوا خصوصا من غروسهم تلك التى قد تعبوا فيها تعبا جزيلا فزاد هذا اللفظ الايثار أن يبين أنه يحب الناس على هذه الصورة لأنه قال ان كنت أنت تشبث هذا التشبث بالعمل الغريب منك فاذا أحق وأولى بأن أتشبث بعملى أكثر الذى أنا مبدعه ثم بين سبب خطأ أهل نينوى بقوله « الذين لا يعرفون يمينهم من شمالهم » أى أنهم اجترموا جرائمهم بغباوتهم أكثر مما اجترموها بخبثهم وهذا المعنى فقد أوضحه تمام توبتهم · وانتهر أناسا آخرين نائحين كأنهم مهملون فقال هذه الألفاظ لم تسألوننى فى أبنائى وتوصوننى الاشفاق على أعمال يدى فالذى يقوله هذا معناه : من يذكر أبا ويتوسل اليه فى أن يعتنى بابنه ومن يذكر صانعا مخترعا حتى لا يهمل عمله أن يسقط ولقد عرفتم كيف يهتم الأب بابنه والصانع بصانعه فكيف اتظنونى محتاجا الى من يتوسل الى حتى أعضد أبنائى وأعمالى ؟ فهذه الأقوال قالها ليس حتى لا يسألونه لكنه قالها ليعرفوا أن الله يعمل ما يناسبه قبل سؤالهم اياه ويريدهم أن يسألوه لأن الفائدة للذين يسالونه عظيمة فى هذه الجهة ·

ارأيت كيف يلمع البرهان على عنايته المتنع وصفها لنا بهذه المثالات أبين وضوحا وأبهى من الشمس حسنا وتأمل الغرض الذى كان قد أورد فى كلامه الأب والأم والختن والعروس وبعد السماء والأرض والفضاء الذى بين المشارق والمغارب وناصب الغروس التعب من أجل البقل النبات والمولد والعاشق الشديد اهتمامه المرتجف خوفا على معشوقه حتى ولو بألفاظه وقال أن صلاح الله بهذا المقدار يفوق على هذه المثالات كلها بمقدار ما يفوق الخير على الخبث ولربنا المجد ·

البـــاب الســـابع

برهان بالخليقة على عناية الله تعالى وسياسته

فهذه على ما ذكرت كافية للخالص ودهم وحفاظهم ولـكن اذا كان قد يوجد اناس جسديون يصعب اصغاؤهم ويعسر عليهم قبول كلامنا لضـعف فهمهم فهات نبرهن لهم عنايته بأفعاله بأعيانها على حسب امكاننا لأنمايتيسر لنا أن نبرهنها كلها واليق ما يقال اننـا ما يمكنا أن نبين الجزء اليسير منها بهذه الصورة وهى قد عدمت أن تكون محدودة أو موصوفة لأنهـا لامعـة بأفعالها اليسيرة والجسيمة وبتـأثيراتها الملحوظة وغير الملحوظة لأن هذه الخليقة العجيبة المنتظمة فى كافة ائتلافها وابداعها ليس لغرض آخـر الا لأجلك وجعلها حسنة بهذه الصورة عظيمة متلونة موقرة نافعة كافية مريحة من كافة جهاتها معطية جسمنا طعـامه وحاجته ومقدمة لنفوسنا العلم الذى يرشدنا الى الطريق المستقيم لمعرفته تعالى ٠

لأن هذا الوجود لم يخلق للملائكة لأن الملائكة اقدم منه فى الخلقة بل ان الملائكة انفسهم ترنموا بمدحها عنـدما خلقت كما قال أيوب « عندما ترنمت كواكب الصبح معا وهتف جميع بنى الله » (اى ٣٨ : ٧) ٠

أى حين كونت النجوم سبحتنى كافة ملائكتى ٠ ومجدونى بصوت عظيم متحيرين من كثرتها من حسنها من وضعها من بهجتها من اشراقها من نظامها من خواصها الآخر كلها التى عاينوها أكثر مما نعاينها ٠ ولم يكتف بجمال السموات والنجوم لـكنه جملها مع ذلك بالشمس والقمر وزينها واهبا لك فى كل وقت اللذة بها كثيرا مخولا اياك الحاجة الجزيلة لأن ماذا يكون أبهى من السماء حسنا الذى يلمعها الشعاع أحيـانا وتضىء الأرض بكثرة نجومهـا المسلوبة تحـديدها كشهب بارزة من عيون ٠ أحيـانا مرشـدة المـلاحين والمسافرين لأن القاطع لجة البحر الجالس على سفينته البـاذل ذاته لمواقع الأمواج ولشدة الرياح ومعاركة الوحوش ولظـلام الليل الفـاقد بدره يثق بالهداية من النجوم والنجم الموضوع فى علو جزيل تقديره يقتـاد من بعـد جزيل الجالس فى سفينته اقتيادا على هذا المثال باستقصاء ذاته قريب منه

حاضر لقربه ويوصله الى الموانى · لعمرى أنه ما يبدى صوتا الا أنه ينظره يريه الطريق ويقطع له المسير البحرى بحياطة ويريه الأوقات ويرتب له الزمن · وهذا ليس نافعا للنوتية فقط لكنه نافع للمسافرين فى البر أيضا حتى لا يمارسوا السفر فى وقت مجهول من الليل ولا يجلسوا فى منازلهم فى الوقت الموافق لسيرهم وهذا الفعل فقد أؤتمن عليه مع النجوم أيضا مساعى القمر بأبلغ الاستقصاء فكما تحدد الشمس ساعات النهار فكذلك يحدد القمر ساعات الليل ويمنحنا حاجات كثيرة أخرى وينمينا بطبيعة الهواء وينمى البذور ويفيدها من ذاته المنفعة التامة لتكوينها ويقف ما بين صف النجوم واشراق الشمس فتحصل لذة من هذا اللون للناظرين ليست يسيرة ·

فحكمة الله لم تكتف أن تجعل من الكواكب والنجوم مرشدا وهادئا ومنظما للأوقات والأزمنة ولكنها جملتها بأبهى الألوان وأجمل المناظر ليصير مع الانتفاع منها التلذذ بها لأنه ما الذى يكون أكثر بهجة لنا من السماء المبسوطة حينا فوق رؤوسنا بصورة جلال نقى صاف المتلونة حينا بهيئة بستان وقد سرنا منظرها نهارا مجملة بالشمس ويسرنا منظرها ليلا بتألق النجوم فى كبدها · فالسماء جميلة من سائر جهاتها وفى كافة أوقاتها · وتلون حسنها يكون صافيا دائما · ما الذى يكون ألذ منظرا منها اذا وافى الليل ولم يكن بعد قد ألمعها شعاع الشمس الأشقر كمنسوج الوشاح الزعفرانى · ما الذى يكون أبهى منظرا من الشمس التى تطلع من جهة المشرق وفى لحظة صغيرة تضىء أشعتها كل أرض وكل بحر وكل جبل ورابية والى السماء كلها وتخلع عن البرايا المنظورة حجاب الليل وترينا الأشياء كلها عارية لدى أبصارنا أنظر كيف تدهشنا بسرعة سعيها وحسن ترتيبها وخدمتها التى لا تتغير طول السنين وجمالها الذى لا يذبل · ولمعانها الذى لا ينطفىء · وانظر كيف تلاقى أشياء كثيرة ولا يصل اليها أذى حيث تتصل بالبذور والغروس وأجسام الناس وفى ذوات الأربع وفى البهائم فى الأسماك فى الأهوية فى الحجارة فى النباتات فى الأرض فى البحر فى الهواء فى البرايا المنظورة كلها على الاطلاق لان البرايا كلها تحتاج وتستمتع بحاجتها منها وتصير أفضل مما كانت اذا ساهمت حاجتها منها · وليس الأجسام فقط ولا الغروس لكن المياه أيضا والبحيرات بعينها تنطلق بها وتتنقى وتصير أصفى مما كانت ولهذا المعنى لما أراد المترنم أن يوضح حسنها البهى باتصال دوامها وجمالها الدائم وزهوتها التى ما تسقط فى

وقت من الأوقات وحسن بهائها وجمال صورتها وخدمتها الناجيـة من تعويق يقطعها قال هذا القول « جعـل للشمس مسكنا فيهـا · وهى مثل العروس الخارج من حجلته » ثم أوضح سهولة خدمتها وقال « يبتهج مثل الجبـار للسباق فى الطريق » وبين خاصتها الـكافية التى تحوى كافة المسكونة « من أقصى السموات خروجها ومدارها الى أقاصيها ولا شىء يختفى من حرها » (مز ١٩ : ٤ ــ ٦) ·

أفتشاء أن أصـف لك من أى جهة أخـرى يجب أن تعرف الأحوال من البحر من الأرض من الأصـناف المتلونة التى فى البحر القـاهر من ذوات الأربع الأرجل التى فى الأرض من الدبابات من الطيور الساكنة فى الهواء من البرية من التى تعيش فى المسكونة وغير المسكونة والبذور النابتـة من الشجر من الحشائش التى فى البرارى والتى ليست فى البرارى من النباتات الثابتة فى البقاع فى الأودية فى الجبال فى التلال فى الحشائش النابتة من ذاتها من الناشئة بتعب وفلاحة من صـنوف الحيوانات الأنيسة الوحشية الداخلة تحت يدى النـاس الصغار منها والـكبار من التى تظهر فى الشتاء من التى فى الصيف تخرج من التى تظهر فى الخريف من الطيـور وذوات الأربع الأرجل والأسماك والغروس والحشائش المتكونة فى الليـل من التى تتكون فى النهار من الأمطار فى الأوقات من الانقلاب من الساعات من مقدار السنين من الموت من الحياة من الوجع الكائن معنا من الكآبة من الطعام من الشراب الذى أعطيناه من ملابسنا من أبنيتنا من الخشب من الحجارة من المواد المعدنية من البحر الممكن المسير فيه من البحر المانع المسير فيه من الجزائر من الموانى من السواحل من سطح اللجة من قاع البحر من طبيعة الاستقصاءات التى منها تسكون العـالم لنـا من ترتيب الأوقات من فعل مقـدار الليـل والنهار من المرض من الصحة من أعضائنا من تكوين نفسنا من صنائعنا من الحكمة الموهبة فيها لجنس النـاس من حاجة البهائم التى تخدمنا والغروس وغيرها من المـكونات من صنوف الحى أصـغرها وأحقرها · ماذا يكون أصغر وأحقر من النحلة ماذا يكون أحقر من النمل ولـكن هـذه الـكائنات الذميمة تبدى مع ذلك صوتا بهيا فى وصف عناية الله وقوته وقدرته وحكمته ولهذا المعنى لما تخيل النبى المؤهل لروح هـذا مقداره جسيم الخليقة وشرح أصنافا منها حقيرة جدا صرخ بدهشة كبيرة بذلك الصوت العجيب « ما أعظم أعمـالك يا رب · كلها بحكمة صنعت » (مز ١٠٤ : ٢٤) وهـذه البرايا

كلها لأجلك . لأن الرياح لأجلك خلقت (لأننى أعود الى كلامى الأول أيضا) لتروح على أجسامنا اذا توجعت لتنظف الوسخ والفساد الكائن من الحماة وتزيل الغبار والثقل الكائن من الدخان ومن أمثال هذه وغيرها لتغذى البذور لتنمى الغروس لتسافر معك فى البحر وتصير خاصته فى الأرض لفلاحتك فهنالك فى البحر تسير السفن تسييرا أسرع من السهم وتسلو الشقاء الكائن من العمل وها هنا تنظف بيادرك معك وتميز التبن من التبر لتجعل لك الهواء خفيفا ناعما لتسرك من جهة أخرى بسمعك وألحاظك فتصفر صفيرا حلوا ساكنا وتصدم حينا الغروس وتهز أوراق الشجر وتفيدك من هذه الجهة لذة كثيرة لتجعل نومك فى حين القيظ لذيذا أشد حلاوة من العسل حتى تكون ماتعمله فى الشجر اياه تعمل فى مياه الأنهار حيث تموج سطحها وتمنحك من هذا الفعل لذة نظرك لتتسلى عن الحرارة الكائنة من أشعة الشمس كما أن الهواء نافع للمياه من جهة أخرى فما يترك المياه تتعفن اذا وقفت وقوفا دائما لكنها باتصال تحريكها اياها وترويحها تجعلها متجددة وانها ملائمة لتغذية أصناف الحى السابحة فيها .

وان شئت تتصفح الليل بعينه وتبحث عنه تبصر فى هذه الجهة عناية الخالق كثيرة لأنه يريح جسمك عند تعبه وتوجعه ويطلق أعضاءك بعد تمددها فى الأتعاب طول النهار ويخلصك من الغموم العارضة لك طول نهارك ويريحك من الهموم التى قد فاتها وقتها وقد اخمد فى أكثر الأوقات حمى المريض اذ أورد له النوم بدلا من الأدوية وسير خبرة صناعة الأطباء فيه الى ميناء راسخ صخره وخلصنا من أتعاب وأوجاع كثيرة فالحاجة الى الليل هذا المبلغ مبلغها وهذه المنفعة الجزيلة منفعته من طريق أن الليل يعطينا ما يعجز النهار عنه فيظللنا بظله وراحته وسكونه الذى به تستقر البرايا كلها وتترطب نفسنا بعد تعبها وجسمنا اذا شقى فى الاتعاب يتجدد وهكذا يمكن بعد راحة الليل أن نمارس النهار متجددين فلو كانت الحياة نهارا فقط ما كان أتعبها ولكن الله جعل النهار لعملنا والليل لراحتنا . وان بسطنا كلامنا الى سعى الأسماك الذى قد فاتنا خبرته التى فى البحيرات التى فى العيون التى فى الأنهار الوحشية والأنيسة التى فى البحر الذى يتيسر المسير فيه التى فى البحر الممتنع المسير فيه . والى أعظم أجناس الطيور المحتجز وصفها التى فى الهواء التى فى الأرض التى فى المياه جميعا لأنه توجد فيها أصناف كثيرة منها الوحشية ومنها

الأنيسة ومن التى تكون وحشية نفوره فتؤنس وتدخل تحت أيدى من يسوقها ويؤنسها من الـأكولة من التى ليست مأكولة وإذا تبينـاها واحدا واحـدا وتأملنـا من كل منها حسنه ورياشـه ونغمته المفردة المترنمـة وان تأملنـا فقط فائدتها وطريقتها ومقـاماتها وأخلاقها وحاجاتهـا وخدمهـا وشرحنـا الخدم التى يخولنـا اياها كلها وعظمها وصغرها وتناسلها وتصرفها والتلون الـكثير المحتجز وصـفه فيها وعملنـا هـذا العمل بعينه فى الأسماك وجئنا من هنـا الى الحشائش اليـابسة النـابتة فى كل موضع من الأرض والتربة ووصفنا ثمرة كل منها وحاجتـه وطيب رائحته ونضرته ووصـــفه وورقـه ولونه وشكله وعظمه وصغره ومنفعته وأصـناف فعله وفصول قشره وأصوله وأغصانه وتأملنا البساتين والغيـاض ثم انتقلنـا الى افاوية الطيب المتلونة المختلفـة أصنـافها وتصـفحنا أماكنهـا وأحوال وجودها والاهتمام بهـا واستغلالها وتأملنا بعد ذلك أيضـا تلك الأحجار المعدنية المحتجز وصفها وما ينفعنا منها وتصفحنا هـذه وغيرها أكثر منها فى كل مافى الخليقـة فأى كلام أو أى زمان يكفينا لتأملها البليغ الاستقصاء عنها وهـذه كلهـا لأجلك والموت لأجلك والحيوة لأجلك والنمـاء وأعمـال الطبيعـة الجزيل تقـديرها والصـنائع والأعمـال والمـدن والضياع والنوم والتربة لأجلك والعالم الذى هـذه حاله الآن لأجلك وسيكون أفضـل من هـذه لأجلك والدليـل على انه سيكون أفضـل من هـذا وكونه لأجلك اسمع ما قاله بولس فى ايضـاح ذلك قال « لأن الخليقـة نفسها ستعتق من عبودية الفسـاد الى حرية مجد أولاد الله » (رو ٨ : ٢١) ومعنى ذلك أنها ستعتق من أن توجـد باليـة فاسـدة ولولا خيفتى ان أجعل كلامى طويلا أكثر من المقدار المعتـدل لتفلسفت بأقوال كثيرة فى وصف الموت وكنت أبين فى هـذا الوجه خصوصا حكمة الهنـا وعنايته ولقلت أقوالا كثيرة فى البلى فى الدود فى تربتنـا . هذه الأصناف التى بحث عنها الـكثيرون ولأن أجسامنا تتحلل الى تراب والى غبار والى دود وأبين فى هـذا الوجه عنايته المحتجز وصفها واهتمامه لأن من عنايته بعينها من صلاحه بعينه الذى به أبدعنا ولم نكن موجودين من هذا الصلاح بعينه أوعز بموتنـا وأمر أن نصير الى غاية هذه حالها لأن أفعاله الـكائنة وان كانت مختلفـة لـكنها موجودة من صـلاحه الواحد لأن المـائت لا يضر من هذه الجهة ضررا والحى بعده يستفيد من قوته أعظم الفوائـد لأنه اذا ما أبصر من كان ماشيا معـه أمس وقبـله منحلا متحللا الى رماد وتراب ولو كان متجبرا تجبر ابليس المحال بعينـه فمن شأنه أن يتـــذلل وينقبض

ويخاف ويتعلم أن يتفلسف ويحتمل ويتخلص من التجبر الأعظم ضررا من الرذائل كلها وينكر نفسه المتعالية ويعلمها أو يذللهـا ويسـكن فى سريرته تواضع اللب أبو كافـة الأفعـال الصالحة والماضى من الدنيـا فلم يبصر ضررا لأن هـذا الجسد سيقوم عـديم الفسـاد فالموت معلم لنـا اذ يؤدب تمييز فهمنـا ويلجم اسقام نفسنا ويقبض أمواج فكرنا ويحصل السكون فى سريرتهـا ٠

فاذ قـد عرفت من الاقوال التى قـد قلنـاها ومن غيرها أكثر عناية الله عز وجل التى هى أبين ظهورا من هـذا الضوء فلا تبحث أبحاثا مختلفة فيما يسمو على فـكرك ولا تحاول معرفة علل كل الأشياء لأن وجودنا بعينه انما هو من صلاحه وهبه لنـا وليست به حاجة الى خدمتنا وقـد يجب علينا أن نعبـده ونسجد له ليس لأنه أبدعنا فقط ولم نكن موجودين ولا لأنه وهب لنـا نفسا ناطقـة خائبـة من جسم ولا لأنه فوض الينا التملك على برايا الملحوظة وقلدنا رياستها ولا لأنه خلقنـا أفضل من باقى الموجودات لـكن لأنه ليس محتـاجا الى شىء منـا لأن هـذا هو العجيب فى صلاحه أنه ليس يحتاج الى أحد منا لأن قبل تكوينه ايانا والملائكة والقوات العلوية كان حاويا مجده وغبطته وأبدعنا لأجل تعطفه فقط وخلق كل ما خلق لأجلنا ٠

البـــاب الثـامن

« فى أن البرهان على عنايته الـكثيرة اعطائه ايانا الشريعة الطبيعية والمـكتوبة وانه جعل الرجال الشجعان أن يصيروا معلمين للامم التى قبلهم حين انطردوا اليهم ووهب لنـا بعد ذلك ورود وحيده وهو رأس الصـالحات لأنه لأجلنـا كتب شريعـة أعطانا اياها وأرسل أنبيـاء واجترح عجائبـه الى التمام » ٠

وحينما خلق الله الانسان وضع فيه الشريعة الغريزية معلما ونصبها لأفكارنا بمنزلة المـدبر فى السفينة وكالرابض للنفوس من هذا وعلى هـذه الجهة عرف هابيل هذه الشريعة ولم تكن الكتب بعد موجودة ولا الأنبياء ولا الرسل ولا شريعة مكتوبة هاتفة بفرائضها لـكنه حوى الشريعـة الغريزية وقد عرفها قائمين على هذه الجهة لأنهما كلاهما عرفاها وعرفا سـيادة الله عليها ولـكنهما لم يسلكا طريقا واحدة بعينهـا لـكن أحدهمـا هابيل سلك

طريق الفضيلة · وما اهمل الله قايين حين سقط لـكنه بعد سقوطه وعظه أولا وأدبه أخيرا وعلمه · فلما لم يعمل الأكثرون من الناس بموهبـة هـذا مقدار منفعتها وهى منفعتهم من تعليمهم الطبيعى ما أبادهم على هذه الحال ولا دفعهم الى هلاك لـكنه لبث يؤدبهم بكتبه باحسانه ويعظهم بعقوباته بهذه الخليقة الفاعلة كل يوم فعلها المتممة خـدمتها المـألوفة بالحوادث الحادثة حدوثا معجزا بخلاف العوارض المـألوفة برجال اتقيـاء فى بدء الزمان لأنه نقل رجالا أفاضـل مملوئين فلسفة من مواضـع الى أماكن غيرها لأنه نقل ابراهيم حينـا الى فلسطين وجعله حينـا أن يذهب الى مصر أيضا وسير يعقوب الى الشام وموسى الى مصر أيضا والثلاثة الفتية ودانيال الى بابل وأرميا الىمصر وأعطانا شريعتهوأرسل انبياءه وزجرنا وأهملنا والى الأسر دفعنا وللعتقأهلنا وما انفك منالابتداء الىالانتهاء يفعلأفعاله كلها ويدبر كل شىء من أجل جنسنا لأنه ما اكتفى بتعليمنا من خليقته المؤدى الى معرفةالهيته فقط لـكن اذا ما اشتمل الأكثرون من تلقاء حفاظهم من هذه الجهة نفعا فتح لخلاصهم طرقا أخرى وبعام احسانه وتمامه قـدم لنـا هذه الأفعال الصالحة وأرسل ابنه الوحيد متجسدا من طبيعتنا بعينها التى له فصار مثلنـا ومشى فى أرضنا وتصرف مع النـاس وأكل معهم وشرب وطـاف أرضنا يؤدبنـا يعلمنا يجترح عجائبه فينـا وأدبنا بالأقوال التى قالها ووعظنا بها بالنوائب التى قاساها بالعوارض التى اصطبر عليها بالمواعيد التى وعدنا بها بالصلاة التى منحنا اياها بما أعطانا من عطايا وما وعـدنا من المنح جاعـلا برهان مواعيده أهلا للتصديق وبعجائبه التى اجترحها لنا مؤيدا بها حقيقة كلامه ·

فمن يستطيع أن يصف أفضال ربنا علينا من لا يدهش من اهتمامه من لايرتاع من عنايته المحتجز وصفها اذا تفطن كيف من أجل عبيد فانين بذل ابنه الوحيد الى الموت اللعين الى الموت الجالب العار موت المجرمين أعظم الجرائم وصلب على خشبة عالية وبصق عليه ولطم ودفن ووضعت سماته فى قبره وهـذه الحوادث كلها كانت لأجلك ولأجل احسـانه اليـك حتى يحل اغتصاب (الخطيئـة) والموت ليفتح لنـا أبواب السماء لتغيب اللعنة لتحل القضية الأولى التى قضى بها علينـا لنتعلم الصبر لنستفيد الثبات والاحتمال لـكيلا يغمك عارض من عوارض عيشتنا الحـاضرة لا بسبب ولا بموت ولا مذمات ولا سياط ولا اغتيالات أعداء ولا تعسفات ولا غارات ولا وشايات ولا ظنون خبيثة ولا صنف آخر من هذه الأصناف وامثالها لأن من أجل هذه كلها

جاء وشاركك فى هذه العوارض كلها وبكافة ماقاساه ضبط لك النوائب كلها بزيادة الاستظهار عليها وأدبك وعلمك الا ترتاع من صنف من هذه الأصناف وأمثالها وما اكتفى بهذه فقط ولـكنه بعد طلوعه الى سمواته وهب لنا نعمة الروح القدس السامى وصفه وأرسل رسله الخادمين بقوة الروح يقاسون الآلام الجزيل عددها مضروبين بالسياط مشتومين مفرقين مقطعين محترقين بالجوع والعطش عائشين فى ميتات مداهمة لأجلك كل يوم وارتضى بذلك لأجلك ولأجل اهتمامه بك · وأعد ملكه لأجلك ونعمه الصالحة المتنع وصفها وتلك النهاية التى هى سمواته ومساكنه المختلفة المتلونة وتلك السعادة التى ليس يمكن فى وقت من الأوقات ترجمتها ·

فاذ قد وجدت لبيان جليل عنايته دلائل هذا مبلغها فى العهد العتيق فى العهد الجديد فى هذه العيشة الحاضرة فى الحوادث الكائنة وفى التى تتكون فى أفعاله المصنوعة كل يوم فى أفعـاله فى ابتداء الزمان فى وسطه فى التى تكون فى غايته فى الكائنة بمداومة فى الكائنة فى حين بعد حين من الزمان · فى التى لأجسـامنا فى التى لأجل انفسـنا ورأيت البراهين عليها شـهودا متقاطرة من كل جهة معلنة عنايته وسياسته فهل تشك أيضا ؟ قـد تقول انك ما تشك لـكنك تقول وتصدق أنه يعتنى بكل شىء فقد ملأت ذاتك من الايقان بذلك فلا تفتش اذا تفتيشا كثيرا اذ قـد عرفت هـذا المعنى معرفة واضحة انك قـد حويت سيدا أخلص ودا من الآباء أوفر اهتماما بك من أمك أشد عشقا لك وأوفر من عشق الختن والعروس محتسبا خلاصك نياحة وراحـة مسرورا بخلاصك أكثر من سرورك أنت به من الأخطار والميتـات وهذا المعنى فقد أوضحه بيونان وثبت كافة صور حنوه كما بينا سابقا لأن عناية الله قد عدمت أن تكون مترجمة أو مدركة وسياسته يمتنع الوصول اليها وصلاحه يعسر علينا وصفه وتعطفه قـد عدم أن يقتفى أثره فاذا قـد عـرفت هـذه الشواهد كلها وأيقنت بقضاياها التى حققها وبأفعاله التى فعلها ويفعلها فلا تبحث عن صنف من أصناف العوارض ولا تكثر تفتيشك ولا تقل لمـا صـار هذا الى وبماذا ينتهى هـذا وكيف ؟ فهـذا الريب يؤدى الى الحيرة والشك · أفلا تسلم الى الله تسليمك للبشر فاننـا اذ جاء طبيب يداوينا نسلم له اذا كوانا اذا سقانا أدوية مرة ولو كان غلاما وكل ما يصنعه لك تحتمله بأوفر صمت وتعرف له المنة على كيه اياك وعلى بتره لأحد أعضائك وهـذا تحتمله رغبة فى الصحة دون أن تؤكـد الحصـول عليهـا لأن كثيرين من الأطبـاء

استعملوا صنوف مداواتهم فقتلوا المرضى وهـذا ما نعمله مع النوتى والبناء وبغيرهم من الذين يمارسون صنائعهم لأننـا نحتسبه جهلا أن نطالب الصانع بعلل الأعمال التى يعملها كلها حين نكون جاهلين بصناعته ومع أننا نظهر هذا الخضوع لأصحاب المهن العالية فاننـا نحن نجسر ونبحث عن الحكمـة المقتنع وصفها السامى نعتها العالى ادراكها ونلتمس لـما صار كذا وكذا على أننا قد علمنا علما يقينا أن هذه الحكمة ناجية من الزلل وأن صـلاح الهنـا جزيل وأن عنايته يمتنع علينا نعتها وأن الأفعال الواصلة الينـا كلها صالحة اذا وصلت الى غايتها ان لم تقطعها فقط أفعالنـا وأنه ما يشاء يهلك واحدا منا وأن يخلص كافتنا ويريد ذلك ويقتـدر عليه وكيف لا نحتسب بحثنا عن أفعال الله جهلا بل جنونا لأننـا ما نبحث عما يعمله معنا فقط لـكننا نبحث عن أفعاله كلها منذ مبادئها وما نصير الى منتهى العوارض الـكائنة هـذه غباوة لا حد لها ٠

البـــاب التـاسع

فى انه يجب أن نتبصر الى غايات أعمال الله

فالحال الأفضل كثيرا أنه لا يجب أن نبحث عن أفعال الله وان رمنـا بحثا فيها فلا نبحث عنها من مبادئها ولـكن لنتبصر الى غايتها فنأمل الى أين تنتهى لا ترتجف من مبادئها ولا تنزعج لأن الصانع اذا أبصره تاجر قد عدم الخبرة بصناعته يسبك الذهب فى ابتداء عمله ويخلطه بالرماد وبالنخالة والتبن ان لم يبصر الى نهاية عمله فيظن أن الذهب قد هلك وضاع وأيضا أن كان أحد النـاس قـد ولد فى البحر وتربى فيه ثم انتقل الى فضاء الأرض بغتة وكان بجملة حاله لم يسمع اهتمام الناس بعمل الأرض وأبصر الحنطة مخزونة محفوظة موضوعة فى موضع نظيف بعيد عن المـاء ورأى الفـلاح قـد أخرجها على غفلة وبذرها وطرحها فى الأرض وقد صـارت فى الحقل لدى جميع المجتازين ولم تخلص من المـاء فقط بل غرقت به ودفنت فى الطين انما يظن أن الحنطة قـد تلفت وضـاعت ويلوم الفلاح الفاعل هذه الأفعـال الا أن لوطه ليس هو منسوبا الى طبيعـة الفعل لـكنه منسوب الى زوال خبرة من لم يميز تمييزا صائبا والى غباوة الذى حكم للحين هذا الحكم منذ المبادىء لانه لو صبر الى الحصاد وأبصر الحقول مخصبة ومتجل الحاصد مرهفـا ورأى الحنطة المبـذورة المسلمة للطين ناهضـة أيضا صائرة اضعافا كثيرة

أبهى خصبا وأكثر تجديدا فاقدة عفونتها منقومة فى كثرة بهائها لابسة لباسا فاخرا منهضة الى العلو ساقها تسر الناظر اليها وتغذيه وتفيده ربحا جزيلا لكان ينذهل انذهالا عظيما حينئذ لأن الثمر انساق بتلك الأفعال الى هذا الخصب والبهاء وأنت أيها الانسان فالحال الأفضل لك كثيرا الآن أن لاتبحث عن أفعال سيدنا كلنا ولا تكن بهذه الصورة جسورا على البحث وأردت أن تركب هذا المركب الخشن وتسلم نفسك لما يسوق الى الجنون بل تبصر الى غاية الحوادث الكائنة لأن الفلاح ان كان يبصر لا الشتاء كله ولا ينظر فى حين البرد الا الى ما يظهر من الحنطة ولا يفكر الا فى تلك الأثمار التى يؤمل أن يتمتع بها فأولى بك أنت وأليق أن تعمل هذا العمل وأن تنتظر على جهة الواجب نهاية أفعال الله فى المسكونة كلها ولست أقصد النهاية التى فى هذه العيشة فقط الحاضرة لأن ربما لا ينتهى عمل من أعمال الله فى هذه الحياة بل أروم بالنهاية فى العيشة المأمولة لأن تدبيره ينظر الى غاية واحدة لهاتين المعيشتين كلتيهما من جهة خلاصنا وتوفيقنا وان كان ينقسم فى الزمان الا أنه ينتظم فى الغرض والمعنى وعلى نحو ما يكون أحيانا شتاء وأحيانا ربيع وكل واحد من انقلابى الزمان ينظر الى غرض واحد هو اكتناز الأثمار وخصبها هذا المجرى يجرى فى أحوالنا فاذا رأينا كنيستنا مشتتة قد فقدت أولادها تقاسى من الشدائد نهاياتها · أهلها مطرودون لا معين عند ضربهم بالسياط والرئيس المتقدم عليها مبعدا الى أبعد المنافى فلا تتأملن هذه الحوادث فقط لكن توقع من هذه الحوادث الفوائد التى تحصل فى أواخرها من صنوف المجازاة عنها ومن اقسام المكافأة عليها لأنه قال عز قوله « من يصبر الى المنتهى فهذا يخلص » ·

واذا كان العهد القديم الذى لم تكن السعادة الأبدية معلنة فيه كما يجب كانت فيه الأتعاب والمسرات وكان كثيرون يصبرون على التجارب مع ماعندهم من قليل العزاء فكم بالحرى ينبغى أن يصبر عليها أبناء العهد الجديد الذى جاء فاديهم وأنار لهم طريق الخلود · واذا كان الأنبياء فى العهد الأول لم يشكوا من بلايا هذه الحياة ولم تكن عندهم المواعيد التى لنا فكم بالحرى يلزمنا نحن من الامتثال والخضوع وقد وعدنا بحياة سعيدة لا توصف · أولئك مع قليل الرجاء الذى لهم مجدوا الله فى مصائبهم أقلا نكون نحن أوفر شكرا منهم · وهذا ما سأبينه بوضوح ·

البـــاب العـاشر

فى ان القدماء انتظروا نهايات الاحوال

بعد أن صار ابراهيم فى وقت من الأوقات شيخا وعدم القـدرة على ايجاد نسل · وكانت زوجته أقل من الصخرة قدرة على الولادة ولـكنه حينئذ وعد ان يكون أبا لبنين كنجوم السماء ورمل البحر فى الـكثرة فلم ينظر الى ما كان يعترض ذلك من عوائق وموانع هذه صفتها من كبر سنه ومن امرأته الفاقـدة قوة التوليد من كبر سنها ومن طول زمانهـا ومن طبيعتهـا لأن ما منعها عن التوليد ليس شيخوختها فقط لـكن منعها عنه أيضـا عطل فى طبيعتها لأنها اذ كانت شـابة كان مصنع طبيعتها عاطلا من الانتفاع به لأنها كانت عاقرا ولهـذا السبب اذ دل بولس على هـذا المعنى بعينـه قال « واذ لم يكن ضـعيفا فى الايمان لم يعتبر جسده وهو قد صار مماتا اذ كان ابن نحو مئة سنة ولا مماتية مستودع سارة » (رو ٤ : ١٩) فمـا قال ميتوتة سارة على بسيط ذاتها لـكيلا نتوهم أنه توخى سنها فقط دون أن نعتقد أنه انما توخى ميتوتة مستودعها بعينـه · غير أنه مع هـذه الموانع العظيمـة فى تقـديرها على ماذكرت اذ عرف ماهو وعد الله وكيف هو دقيق الحيلة سريع النفوذ وأن موعده ليست تعوقه شريعـة طبيعيـة ولا صعوبة الأحوال ولا أى صنف آخر من صنوف التعويق لـكن موعده لا يسقط · فلذلك اقتبل ماقيل له وصـدق ما وعـد به وما ترك الشك بداخله البتة وحكم أن وعـد الله مؤهل للتصديق وما بحث كيف وبأى حال تكون هذه المواعيـد ولم لم يوعد بذلك فى حداثتـه لـكنه وعد به فى شيخوخته وفى آخر أوقاته ولذلك يذيع بولس فضيـله بأن ايمانه وتصـديقه كانا خارجين حد الأمل الانسـانى فامن بالله الحى القاهر الموانع كلها القـادر على ما يشاء الغـالب العوائق بجملتها وصـدق ليس ان يكون أبا فقط لـكنه صـدق أن يكون أبا لأمم هذا مقدار كثرتها وقـد كان شيخا فانيا وامرأته عجوز عاقر فلم يتـأمل جسده مماتا لأنه كان ابن ماية سنة ولا ميتوتة أحشاء ساره وما تقسم رأيه فى وعد الله بقلة ايمان لـكنه تقوى فى تصديقـه اذ أعطى الله مجدا وأيقن أن ماوعد به هو قادر أن يفعله وبهذا العزم مجد الله تمجيدا جزيلا لأنه لم يتقدم الى البحث بل سند كل شىء الى قدرة الله الممتنع وصفها ولم يكثر من القـول لم وكيف ·

ولـكن أعجب من ذلك أنه لما أمر أن يذبح ذلك الابن الوحيد الذى وعد به فما شك ولا فى ذلك الوقت ولم تغلبه الهواجس القـادرة أن تشـكك من ليس يكون مستفيقا ولا مستيقظا وقد كانت كثيرة فأولها هذا الأمر بعينـه أترى يا الله تقبل ضحايا هـذا مقدارها ويوعز الى الآباء أن يقتلوا أبناءهم ويقضوا على عمرهم بموت مريع وأن يدفعوا بنيهم الى الهـلاك قبل أوانهم أيليق أن تأمرهم بان يقتلوا بأيديهم المولودين منهم وأن يصبغوا مذابحك بدم هذه صفته وتريدهم أن ترفع يمين أبوتهم سلاحا على وحيـدهم ويشـاء أن يكون الصـديق أصعب القـاتلين فعـلا ؟ وتأتى بعد ذلك عواطف طبيعته عند انزعاجها لأنه ما كان أبا فقط لـكنه كان أبا لابن غير عادى ابن وحيد حسن المنظر جميل التفطن فى زهرة سنه مكمل بجمال نفسه وبحسن جسمه عظيم فى اخلاص وده لأنه قـد أعطى أباه حياته ذاتها بلا معارضة · ومن شـأن البنين الذين هـذه حالهم أن يتزايد الشوق اليهم لاسيما اذا كانوا كاسحق وهب بعد ضـياع الرجاء خلافا لنظام الطبيعـة · وفوق هذه كلها كان وعد الله أكثر الأسباب استدعاء للشك لأن الموعد كان ضد الأمر الصادر وذلك أن الوعد الذى وعد به كان على هـذا المثال · أن يكون نسلك كنجوم السماء والأمر الذى امر به كان أن يميت ابنه الوحيد الذى اعتزم أن يملأ منه كافـة المسكونة التى تجاوره وأن يدفعـه الى ذبح شنيع ولـكن ما تشكك الصديق على هذه الجهة ولا ارتجف ولا عرض له عارض غير لائق مما يعرض لأناس من الفاقدين ايمانهم ولا قال لذاته ماهذا لقد خدعت ولقـد طغيت بهذا الأمر أمر الله هيهات أن يكون ذلك لست أقبل أن أصير قاتل ابنى من المتنع أن أصبغ يمينى بدم هـذا الوحيد كيف يتم الوعـد مع موته اذا اقتلعت الأصل من أين تكون الأغصـان اذا استأصلت الشجرة من أين تكون الأثمـار اذا طمرت العين من أين تجرى الأنهـار اذا ذبحت ابنى من أين يحصل لى كثرة البنين المعـادلة كثرة النجـوم لأن الموعـد يضـاد هـذا الأمـر الا أنه ما قال قـولا كهـذا ولا خطرت بوهمـه أفـكار كهـذه لـكنه لجأ الى قدرة واعده هـذه الدقيقـة حيلتها السريع نفوذها اللامعة بأضدادها المستعليـة فوق شرائع الطبيعـة الأوفر اقتـدارا من البرايا كلها التى ما تمتلك صنفا مضادا لها وتمم هـذا الفعل الذى أمر به بتيقن كثير وذبح ابنه وخضب يمينه بدمه وصبغ به سكينه وأوصل سكينه الى عنقـه ولئن لم يكن ذلك بالفعل الا أنه بنيتـه قـد تمم هـذه الأفعـال كلها ولـذلك تعجب موسى النبى وقال هذا القول عنه :

« ان الله امتحن ابراهيم وقال له خذ ابنـك المحبوب اسحق الذى قـد احببته وقربه لى على احد الجبـال التى أصفها لك انا » اهذه الألفاظ تتفق والموعد وبشارات الوعد القائلة انك ستكون أبا لجماعة من البنين وسيكون نسلك كنجـوم السماء انظر كيف بعـد هذه الألفاظ كلها أطـاع أن يذبح ابنه واقبل ذلك وذبح ولده الذى منه توقع أن تكون له هذه الـكثرة من البنين وبادر الى أن يقتل هـذا ويذبحه ويقـدمه ضحية لله ويولس ايضا قد تعجب من هذه الجهة وكلله بهذه الصـفة وأذاع ذكره قائلا « بالايمان قدم ابراهيم اسحق ابنه وهو مجرب » ثم أرنا الفعل الذى فعله ما أعظمه وما أظهره من خلوص أمانته فاستتلى بهذا اللفظ « قـدم الذى قبل المواعيد وحيده » فلم يكن له ابنـان صالحان وانه توقع اذا قتل هـذا سيكون أبا لـكثرة بنيه من ذلك الآخر لـكنه انما امتلك هـذا وحده ومن هـذا وحده تعلقت عنـاصر الوعد الا انه مع ذلك اختـار أن يذبحه وكما انه فى الوعد بولادته لم يرتب من ضعف طبيعته ولا من ضعف طبيعـة امراته فـكذلك ما ضعف هنا بموته ·

فتعلم هذه الأفعال وقايسها بالأفعـال الحادثة الآن فتبصر صغر نفسك وتعاين حقارتك لـكثرة ارتيـابك وتعلم علم يقينـا أن ولا من أى جهة من الجهات يمكن أن يشك فى عنـاية الله وسياستها لـكنك تشك لأنـك تلتمس دائما معرفة سياستها وتطالب بعلل الحوادث الحـادثة واحدة فواحدة ولو فعل ابراهيم هكذا لحاد عن ايمانه ولـكنه لم يبحث عمـا قيل له ولا فتش عنه فلذلك اشرق فضله وحظى بجميع ما وعد به ولم يشك فى وعد الله الأول ولا فى الأمر الذى أمر به بعـده ولا توهم أن ما أمر به قـد يكون مانعـا للموعد ولا ظن أن التضحية تكون مبطلة للوعد ولا سقط الى اليأس من الوعد على انه قد حصل على نهاية ما وعد به بعينه ·

ولا تقل لى هذا القول أن الله أمر ابراهيم بذبح ابنه ولـكنه كان عازما أن يمنعه عن ذلك لأن ابراهيم لم يعرف نيـة الله ولا أيقن انه سيمتنع عن ذبحه · لـكنه مد عزمه الى ذبحه ولذلك نودى باسمه مرتين من السماء لأنه ما قال له يا ابراهيم على بسيط ذات دعوته لكنه قال يا ابراهيم يا ابراهيم مكررا مناداته بشدة لعلمه بعزمه الأكيد علىذبحه وحاجزا اختياره المتدالى تضحيته · على هـذا المثال كان فعله ولم يظهر منه البتة شك وعلة ذلك انه لم يبحث عن أغراض الله ·

وما قولك فى يوسف العفيف قال لى افلم يتكبد مصابا هذه صعوبته لأنه كان قد أعطى من الله نعمة عظيمة من موعده وحصلت الحوادث الحادثة عليه أيضا اضدادا للمواعيد التى وعد بها لأن الوعد كان من شأنه أن يسجد له اخوته كما ظهر له فى حلمى النجوم والحزم الا أن العوارض التى عرضت له بعد هذين الحلمين كانت مضادة لكليهما فاولها حرب صعبة ثارت عليه فى منزل أبيه من اخوته بسبب حلمه فنبذوا شرائع الاخوة معه وفكوا مرابط ود النسبة وزعزعوا أوضاع طبيعتهم وصاروا أعداء محاربين اشد من تنمر الذئاب على اخيهم وبمنزلة وحوش وحشية فاقدة استئناسها قد جذبت فيما بينها خروقا فى وسطها كذلك كانوا كل يوم يتآمرون عليه وكانوا بهذه الحرب وحسدهم الفاقد القياس والظالم وبتحرقهم وبغضهم يدبرون طريقة قتله كل يوم اذ اضطرم هذا الاتون والتهبت هذه النار واذا لم يمكنهم أن يعملوا به عملا مكروها فى المنزل بسبب منزلته عند أبيه ثم حدث بعد ذلك أن وجدوه فى معزلة عن الحاظ ابيه وصادفوه فى البرية حاملا لهم طعاما موافيا الى افتقادهم فما احتشموا ولا خجلوا من مائدة أخيهم لكنهم ارهفوا سيوفهم ليقتلوه دون أن ياتى ذنبا ولكن بسبب الحلمين اللذين لأجلهما كان يجب أن يكللوه وأن يذيعوا ذكره فصاروا حاسدين له محاربين الا أن ذلك الفاضل وعلى هذه الحال ما ارتجع عن الفتهم لكنه اظهر وده اياهم فى حال خبثهم هذا الجزيل تقديره الا انهم نهضوا الى قتله وقد قتلته طائفة منهم وخضبوا يمينهم بدمه وتمموا قتل أخيهم الا أن حكمة الله وقدرته الدقيقة حيلتها السريعة النفوذ فى العوارض العسر سلوكها اختلسته من أيديهم النجسة لأن الواحد من اخوته أشار عليهم بمشورةتبعدهم عن التدنيس بقتله فحقق الله مشورته ومنع ذبحه . وما وقفت لعمرىالشدائد ههنا لكنها نفذت الى أبعد غاية أيضا اذ لما منعوا من قتله غلى عليه غيظهم وتجددت افعال تحرقهم وكان نموذج شرهم عظيما فنقل غضبهم الى غرض آخر لأنهم جردوه من ثوبه وكتفوه وطرحوه فى جب أولئك الجفاة المتوحشين الزائلة انسانيتهم وجلسوا فتمتعوا بالمائدة التى حملها هو اليهم وكان هو فى الجب مرتاعا لأجل غايات ما يجرى عليه واولئك قد تنعموا وسكروا وما وقف عند هذه الأفعال جنونهم لكنهم اذ ابصروا أناسا اجانب مسافرين الى أبعد من بلدهم منحدرين الى مصر تناولوا أخاهم فباعوه لهم مخترعين له من هذه الجهة موتا آخر أطول مدة مملوءا شقاء كثيرا لأنه كان صبيا متربيا بحرية كثيرة فى منزل أبيه بعيدا عن العبودية بالجملة ومن

الشقاء الذى فيها فتفطن ما هو المصاب الذى قاساه عن غفلة اذ صار بدل حر عبدا وبدل مدنى غريبا مصطبرا على أسر فى غاية الشدة فلم يقاس الم العبودية وحدها ولـكنه حصل منفصلا من أبيـه ومن أهله كلهم عاريا غريبا فاقدا منزله ومدينته لأن ما الذى لم يكن فيـه كفاية أن يزعجه وقـد أصابته هذه المصائب وهى مداهمة المصيبة اياه وعدمه انتظارها وحلولها به بخلاف أهله وخلوه من التدرب بها وصعوبة ممارستها وورودها اليـه من اخوته الذين كان يحبهم وما ظلمهم ظلما لا صغيرا ولا كبيرا بل الذين قد أحسن هو اليهم ولـكنه مع ذلك ما ارتجف ولا بعارض من هذه العوارض ٠

أما أولئك التجار فقد سيروه الى مصر فاستبدل عبودية بعبودية لأن هنالك ايضا صـار عبدا واسكن فى منزل مصرى وهو العبرانى الحسيب قد صـار الى حال مضعفة ولا ريب انه حينئذ تذكر حلميه اللذين بشراه باضداد ماجرى له ولـكنه لم يبحث قائلا ما السبب فى هذه العوارض الحادثة اذ بينما كان عبـدا كان الظالمون قاتلوه يتنعمون فى منزل أبيهم وهـذا الذى ارتجى له أن يتملك عليهم صـار عبدا مباعا أسيرا فى غايته مقاسيا اضداد ماوعد به لأن ما كان صعبا حينئذ أنه لم يحظ بالملكة فقط لـكن أصعب من ذلك انه خاب من وطنه وحريته وعدم النظر الى أبيه وما وقفت مساعى آلامه لـكن حفرت له هنـاك هاوية أعمق قعرا حوت موتا وذبحا شنيعين وقد كان موتا يجلب عارا وذبحا ممثلا خزيا لأن التى خـدمها أبصرته بعينين ظالمتين وصيدت بحسن الشباب واستباها بهـاء وجهه ونظمت له صنوفا من غشها واحتيالها وبسطت له شباك الفسق ولبثت ترصـده كل يوم داخل شـباكها وتلقيـه فى هاوية الفسق بها وتدفعـه الى موت قـد عدم أن يكون ميتـا وكانت كل يوم تبرز الى هـذا الاقتنـاص متسلحة بعشقها وحدث أنها وجدته فى وقت من الأوقات وحـده فاجتذبته الى المضجع الظـالم غصبا واضطرته أن يخوض زواجا غريبـا وارتاءت أن تفسـد عفتـه الا أن ذلك الصـديق ما أصابه من هذا العارض شىء لـكنه ظهر فوق اغتصـاب شهوته واراجيف حـداثة سنه وازعاجات شبيبته وشفق على نفسـه من لمس تلك ومن نظرها ومن جفونها بسهولة كثيرة وصـار كنسر باسط جنـاح عفته العـالى وخلع ثيـابه وتركها فى يديها الفـاسقتين وخرج عاريا من ثيـابه مشتملا لبـاس عفته بهيا ظـاهرا حسنه أحسن من ديبـاجة الملك بعينهـا ٠ فهنالك ارهف له السيف ايضا واضمر له الموت اضمارا متتابعا ورفعت أمواجه أعظم رفعا

لأن جنون تلك المرأة وهيامها اضطرم اشد من اضطرام الأتون البابلى التهابا لأن شهوتها حينئذ نهضت أعظم نهوض وغضبها الذى هو مرض آخر أصعب أمراض هواها صوبته بوحشية كثيرة عليه ونظرت الى قتله وسارعت الى السيف وجمحت الى ذبحه وقد كان ازوغ الأعمال عن الشريعة واجتهدت أن تقتل المجاهد ضد الشر المناضل بالصبر والثبات وبادرت الى رجلها وأخبرته بما جرى عليها ليس على حذو ما اشتملت عليه حقيقة أمرها وفعلها ولكن على نحو ما قد اخترعته حيلتها بخبثها وحققت عنده ما أرادته بثلبها كمظلومة وطلبت الانتصار منه لها حاملة بيديها النجستين ثياب الشاب برهانا لما قرفته به فما استحضر ذلك القاضى الطائش رأيه الى مجلس حكمه ذلك الشاب المثلوب ولا سمع منه كلمة ولكنه حكم على من لم يبصر مجلس حكمه كما على شرير مشهرا أمره وحبسه فى الحبس وغله بسلاسل وصار أسيرا مع السحرة ومع اللصوص ونابشى القبور مع قاتلى الناس مع المتجاسرين على الأفعال الواصلة الى الغاية القصوى من قباحتها الا أنه مع ذلك أزعجه عارض من هذه العوارض ولبث فى السجن معاقبا على محامده التى كان واجبا أن يكلل لأجلها ويشاد بذكرها ٠

وفضله ظهر فى أنه ما ارتجف ولا فى هذه الحال ولا قال ما هو هذا الذى انتظره أن أملك على اخوتى ؟ ما خبت فقط من هذه الكرامة لكننى قد خبت من وطنى ومن منزلى ومن والدى ومن حريتى ومن راحتى وقبيلتى الذين أملت أن يسجدوا لى ثم بعد ذبحهم اياى باعونى وصرت عبدا وما وقفت الملمات فى هذه الحوادث لكن الهوة لدى فى سائر المواضع والصخور تعثرنى فى كل مكان لأن بعد اغتيال اخوتى لى وذبحهم اياى وبعد استعبادى الأول والثانى اخترع لى موت أصعب من الأول لأنه انشأ لى اغتيالا وتشريدا ومجلس قضاء وتغيرا فيه خزى كثير وذبح ولد لى ذبحا موجعا ودون أن اطالب بجواب حملت الى الحبس وطوقت بسلاسل مع أشر الناس نوعا ورئيس السقاة تخلص من سلسلته ومن حبسه وأما أنا فما قدرت أن استمتع بعده ولا بصنف من راحته ذلك خرج كما فسرت له حلمه وأنا فحاصل فى ملمات رديئة قد عدمت تلافيها أفهذه الشدائد هى التى تقدمت تلك المناظر فدلت عليها أهذه النوائب أوضحها عدد النجوم أهذه المصائب بينتها الحزم أين دلائل المواعيد أين علامات البشارة أترانى انخدعت الطى انطغيت لأن كيف يسجد اخوتى فيما بعد للعبد الأسير المعتقل المظنون أنه

فاسق المتورط فى خطر الشـدائد الواصلة الى نهايتها · لقـد ضـاعت تلك البشارة واهلكناها الا انه ما ذكر من هذه الأقوال صنفا ولا تفطن فى خاطر منها لـكنه صبر الى الغـاية عارفا دقـة حيلة الله تعـالى بعينها وحكمته السريع نفوذها وليس مستعجبا انه ما تشكك فقط لـكن أعجب من ذلك انه فاخرا بالحوادث الحادثة عليه ·

وما قولك فى داود النبى أفما قاسى أصعب الملمات مراسا بعد أن مسح ملكا وبعد أن تسلم قضيب الملك على رهط العبرانيين باختيـار الله جل ذكره وبعد أن ظفر ذلك الظفر المبهر بجليات صـار شاول يحاربه مرسلا اياه الى حروب شـديد خطرها مطرودا الى البرارى طردا متصـلا تائها هاربا خائفـا من مدينته ومنزله مقيما عند الغرباء المحاربين قبيلتـه الأوفر عـداوة لرهطـه مصطبرا على حياة أصعب من العبودية مراسا لأنه كان من طعامه الضرورى معوزا واهـذه المصـائب قاساها بعد حضور صموئيل وبعد دهنه اياه بالزيت المقـدس وبعد وعده ايضا اياه بالمملـكة بعـد تحصيله عصاة التملك وتاجه بعـد انتـداب الله له واختياره ومع ذلك فمـا ارتاب بعـارض من هـــذه العوارض ولا قال أين ذلك الذى انتظره انا الملك المرتجى أن اتمتع برياسة هـذا مقـدار سموها ولم أصر فردا بعيـدا عن الملك فقط لـكننى قـد صرت تائها هاربا عادما مدينتى ومنزلى طائرا حاصـلا فى بلد الغرباء معوزا من طعـامى الضرورى أصـاب بهذه النوائب كل يوم اتورط فى الخطر ملفوظا بى أين مواعيـد التملك أين تلك الرياسة الا أنه ما قال قولا من هذه الأقوال ولا تفطن فيـه بفكره ولا تشكك بسبب الملمـات التى تأتيـه لـكنه اصـطبر منتظرا نهاية المواعيد ·

وقد يتجه لى أن أصف أناسا جزيلا عددهم غير هؤلاء سقطوا فى نوائب صعبة وما ارتجفوا لـكنهم تمسكوا بمجد الله عز وجل وان كانت النوائب العارضة لهم قـد عرضت اضدادا للمواعيد التى وعدوا بها وتكللوا بالأكاليل التى هى بهية حسنها لأجل صبرهم هـذا الواصلة جودت الى غايتها فتصبر أنت أيها الحبيب الى الغـاية فانك ستصل على كل حال اليها اما فى هـذه الدنيا واما فى الدهر المـأمول واخضع لسياسة عناية الله الفائق ادراكها مراعيا أحوالك ولا تقل كيف تأتى هذه النوائب ولا تفتش عن مذاهب أعمال الله البديعة فى ذاتها ·

الباب الحادى عشر

فى أن بداية أعمال الله كثيراً ما تخالف نهايتها

وأن الصديقين أبصروا فى الابتداء العوارض كلها مضادة لآمالهم

لأنه ولا أولئك الذين تحقق فضلهم ماطلبوا معرفة مالم يفهموه من اعمال الله لكنهم اذا رأوا الحوادث كلها تفضى بهم الى القنوط واليأس من لدن الفكر الانسانى لم يرتجفوا على هذه الحال ولم يتشككوا بل تحملوها باوفر شجاعتهم مؤمنين باقتدار من وعدهم منتظرين منحه العالية التى أملوها ولم يهبطوا الى اليأس من تلقاء مضادة الحوادث التى مارسوها الا أنهم علموا علما يقينا أن من وعدهم دقيق الحيلة يقتدر بفعل حكمته بعد اليأس من الأحوال أن يستعيدها أفضل مما كانت سالفا · فان حصلت أنت أيها الحبيب فى حال كهذه فمجد الله كثيرا وان نقضت عمرك فى الملمات المستصعبة فاشكر له على هذه الحال ولا تشكن أصلا لعلمك بعناية الله علما واضحا ومعرفتك لسياسته الفائقة معرفتها التى ما يقتدر المخلوقون على معرفتها ولا ترجمتها · وايقانك أن نوائب الدنيا كلها ستنال الغاية وانها لا تقاس بالمجد العتيد أن يستعلن فينا وأن لا مقارنة بين أمانى الحياة الحاضرة ·

فان سمع سامع ذكر المكافأة المرتجاة وتضجر من طول المدى وحاول أن يعرف ما سيكون له فى هذه الدنيا فنقول له ان الحياة الصادقة والأحوال الحقيقية الفاقدة تزعزعها تنتظرنا لأن حياتنا الحاضرة طريق وتلك وطن والحظوظ التى هنا تماثل أزهار ربيعية والتى هناك تشابه الصخور الممنوع تزعزعها فالأكاليل هناك وأنواع المكافأة هنالك الجوائز ورايات الظفر هنالك العذاب والعقوبات لفاعلى المساوىء مما يمتنع احتمالها فلا تظن أن التوفيق فى الحياة يعطى الانسان ايمانا بل يوجد كثيرون بعيدين عن الايمان فى وسط تنعمهم وآخرون يؤمنون وسط المصائب العديدة وكثيرون قد تعرقلوا الا أن معظمهم قد وقفوا وثبتوا وجمعوا لأنفسهم ثوابا أعظم نفعا وما انقلب عزمهم لا باقتدار الذين اغتالوا عليهم ولا بصعوبة

ازمانهم والمفتونون فليفكروا فى نفوسهم أن الثـلاثة الفتيـة اختلعوا من املاكهم الطاهرة ومن هيكلهم ومحرابهم ومن اهتمامهم الآخر كله الذى فى شريعتهم وخلدوا فى وسط بلد غريبـة فحفظوا شريعتهم بأبلغ استقصائهم وحفظها دانيال النبى نظيرهم وآخرون كثيرون واقوام لما ساروا فى السبى بالأسر ما ضرهم ذلك ضررا وأناس غيرهم لبثوا فى منازلهم وتمتعوا بكافة الخيرات التى فى وطنهم فعصوا الله وأوجب الحكم عليهم ٠

البـــاب الثـانى عشر

فى قول قائل لم أبقى الله فى العالم الناس الخبثاء والشياطين وابليس المحـال

فان خرجت من البحث فيما مضى وأردت أن تبحث أيضا فى أعمـال الله فانك تجد فيها أشياء عديدة تحير فهمك فتقول لم أطلقت البدع فى الدين لم أهمل ابليس المحال لم تركوا الشياطين ههنا لم استبقى الخبثاء من الناس الذين يعرقلون اناسا كثيرين ونبحث عن رأس هـذه المطالب كلها لم يعطى معاند المسيح الحاوى مقـدرة هـذا مبلغها لأطغـاء النـــاس تبلغ الى أن يقول المسيح « انه يضل ولو أمكن المختارين » لـكننا ما ينبغى لنـا أن نطلب هـذه الغوامض لـكن سبيلنا أيضا أن نطلق لفعل حكمة الله المتنع ادراكه مراعاته لأن الانسان المتعود الاقامة فى الاصـقاع البـاردة ان وافته أمواج جزيل عددها وان تقاطرت عليه أمطار كثيرة فليس مستعجبا أنها لا تضره فقط لـكن أعجب من ذلك أنه يصير أقوى مما كان بأسا والضعيف المتراخى المتضجر طالمـا سقط من غير أن يؤذيه أحد وان ابتغيت أن تعـرف وصـفا يوضح هـذا فاسمع جوابا معروفا عنـدنا لأن أقوالا كثيرة توجد واضحة بينـة عند مدبرى الأحوال كلها تدبيرا مختلفا فالذى قـد عرفنـا نحن فهو هذا الا أننـا نقول ان هذه الشكوك توجد حتى يزداد ظفر الأبطال الصناديد وهذا الغرض أوضحه الله عز وجل حين جاوب أيوب قائلا أتظن أنى أنزلت بك النازلة لغرض آخر الا لكى تستبين عدلا ويولس الرسول قـد قال انه يجب أن يوجد فيما بينكم بدع الاختبـار والهوى ليصـير المختبرون فيكم ظـاهرين فاذا سمعته أنت يقول يجب أن يوجد بينكم بدع الاختيـار والهوى فلا تظنـه قال هذا القول موعزا بهذه البدع أو مشترعا اياها أبعد هذا الوهم عنـك

لـكنه تقـدم فـذكر مايرتجى كونه وسبق فعرف ماكان فيه من الفائدة من هذا الوجه لأنه قال حينئذ تستبين لـكم الفضيلة أبين وضوحا ٠

وهكذا فالخبثاء يستبقون لأجل علة أخرى لهم فكثيرون منهم تجوا قبل موتهم فبولس الرسول على هذه الطريقة خلص واللص على هذه الحال وكذا الزانية على هذه السجية استخلص والعشار بهـذا الغرض تخلص وأناس آخرون كثيرون فلو كانوا اختطفوا من هـذه الدنيـا قبل انتقالهم لـما كان استخلص ولا واحد منهم وبولس الرسول قـد ذكر لنـا فى وصف معـاند المسيح علة أخرى وان سألت وما هى هذه العلة أجيبك هى التى تحجز عن اليهود من هذا الوجـه كل احتجاج لأن أى عقل وأى عفو يحصل لهم اذ لم يقتبلوا المسيح الهنـا وهم متوقعون أن يؤمنوا بذلكفلذلك قال حتى يوجب الحكم عليهم كلهم اذ لم يصـدقوا الحق الذى هـو المسيح لـكنهم ارتضـوا بالظلم لأنهم لم يؤمنوا بالمسيح لـما قال عن ذاته انه اله قالوا لهذا السبب نرجمك بالحجارة لأنك وأنت انسان افتجعل ذاتك الها على أنهم قد سمعوه برفع أكثر أفعـاله الى أبيه بعينه وقائلا انه انما جاء برأى أبيه مبرهنا قوله هذا بشواهد كثيرة فما الذىيقولون اذا اقتبلوا معاند المسيح القائل عنذاته انه اله ولا يذكر أبا لـكنه يعمل بخـلاف ذلك بقوله عن ذاته أنه اله وهـذا الفعل قـد تقـدم المسيح الهنـا فعيرهم به وقال هـذا القول أنا جئت باسم أبى فما قبلتمونى فاذا جاءكم آخر باسـم ذاته اياه سـتقبلون لأجل هـذه الأغراض تستبقى الشكوك فان ذكرت الى الذين تشككوا وفتنوا اذكر لك أنا الذين أشرق فضلهم من هـذه الجهة اشراقا عظيما وأقول لك ايضا هذا القول بعينه أنه ما يجب لأجل جهل أناس آخرين وزوال تيقظهم أن يهمل القادرون أن يستفيقوا ويتيقظوا ويتكللوا من هذه المحن بأكاليل جزيل عددها لأن هؤلاء قـد تألموا ولـكنهم أخذوا من آلامهم سببا لنصرتهم وتمجيدهم وهم يوبخون من جعلوا الآلام سببا لـكفرهم لأن سيرتهم أوفر بهاء وأشد باسا ٠

البـــاب الثـــالث عشر

فى أن المستفيقين لا يضرهم عارض ولا يعرقلهم

لأن ابراهيم بأى كاهن اتعظ وبأى معلمين وبأية موعظة وبأية معاتبـة وبأية مشورة تمتع لأن الـكتب ماكانت حينئذ ولا الشريعة ولا الأنبياء لـكنه سار بحرا قـد عدم المسير فيه وسلك طريقا قـد فقدت تمهيدها فهذه الأفعال ما أضرته ضررا لـكنه أشرق فى فضيلته اشراقا وصل فيه الى أن ابان العلوم التى أزمع المسيح الهنـا أن يعملها للناس بعد زمان طويل بعد الأنبيـاء بعد الشريعة والتأديب الجزيل تقديره الـكائن بآياته وعجائبه وسبق هو فأظهرها بأفعاله وأوضح حبـا خالصا حارا وأعرض عن الأموال وأشفق على اهله وابتعد عن كل الصلف واجتنب العيشة الرطبة عائشا عيشة أبلغ استقصاء من عيشة النساك الذين توجهوا الى قمم الجبال لأنه ماكان له بيت لـكن ظل أوراق الشجر كان سقفا للصديق واذ كان غريبا ما صـار فى ضيافة الغرباء وآتيا لـكن جعل هـذه الضيافة فى غربته عملا له دائما عنـد اقتبـاله فى الظهيرة المجتازين به وخدمته ولطفه بهم وتمم بذاته هـذا العمل كله وجعل امرأته شريكة له فى هذه التجارة النـافعة وما قولك فيما فعله مع ابن أخيه مع أن هذا لم يحفظ له جميلا وذلك حينما غلب لوط من مجاوريه فترك ابراهيم راحته واستصحب جماعة غلمانه متدرعين سلاحهم وزج ذاته فى خطر ظاهر · ولمـا أوعز اليه بترك منزله ومضيه الى أرض غريبه أفما أطاع لوقته وساعته وترك وطنه وأصدقاءه ومناسبيه وأهله كلهم وأطاع ايعاز أمردفترك أملاكه الواضحة وجنح الى أملاك عـدمت أن تكون واضحة لأجل وعد الله جل وعز ذكره وهكذا كان ما كان من أمانته المتزايدة · وبعد هـذه الأحوال كلها دهمته مجاعة فمـا ارتجف ولا اضطرب لـكن اظهر طاعته هذه بعينها وكلمته وفلسفته وصبره وانحدر الى مصر وأطاع الله تعالى الذى أمره بهذه الأفعال وأمثالها واختلست منه امرأته وأبصرها مهانة فاصطبر على فجائع أصعب من الموت مراسا وانجرح فى أشد مقاتله خطرا لأن قل لى ماذا يكون أثقل من أخذ أعجمى لامرأته الى باطن دياره الملوكية فاحتمل هـذه النوائب كلهـا بأوفـر حلاوة ولم يتزعزع بل حفظ عزمه فى زماني الشـدة والرخاء متساويا ·

وما قولك فيه حين وعد بابنه ؟ أفلم تكن الموانع من أفكاره جزيلا عددها فسكنها كلها وبطل الارتجاف الناشىء منها ولمع منها أمانته وفضله · وحين أوعز اليه أن يقدمه ضحية أفلم تكن حالا حائل من يقدمه الى عروسه؟ على هذه الطريقة قدمه وخرج من طبيعته بعينها وتبرأ من أن يوجد انسانا ورفع ضحية جديدة بديعة وجاهد هذا الجهاد وحده وما شارك فيه امرأة ولا خادما ولا أحدا غيرهما ممن كان معه لأنه عرف تماما أنه ان أعلم أحدا بالأمر يحاول أن يمنعه عنه فلذلك مارس هو وحده هذا السعى وخاض فيه واجتهد وتكلل وذاع ذكره فأى كاهن علمه هذه المحامد أى معلم أفاده اياها أم أى نبى ؟ لا أحد لكنه ان كان قد امتلك نفسا حية عزمها قوى لهذا سار فى أفعاله حكيما ·

وما قولك فى نوح أى كاهن استصحب أم أى معلم ومؤدب لأنه لما انفسدت المسكونة كلها بالخبث سلك هو وحده الطريق القويمة وحفظالفضيلة واشرق فيها هذا الاشراق الذى أوصله الى التخلص من غرق المسكونة والى خلاص آخرين معه من مهاول الخطر التى أحاطت بالخليقة · من أية جهة صار صديقا من أية طريقة صار تاما وبأى صورة تهذب لا أحد · وبعكس ذلك ابن هذا الفاضل مع أنه كان قد صار له ابوه معلما داخل بيته بفضيلته واستمتع بوعظه وبألفاظه وعاين من أفعاله الغاية التىوصلت اليها وشاهد من المصيبة ردعها ومن الخلاص منها عدله ومع ذلك صار خبيثا مستهجنا والده وأذاع عرى أبيه وشهرها ·

أرأيت أن الحاجة فى كل مكان الى نفس قوى عزمها ؟ وما قولك فى أيوب قل لى من من الأنبياء سمع وبأى تعليم استنار · لم يستفد شيئا من أحد · لكنه مع كونه لم يحفظ ولا بواحد من المعلمين أظهر كل صورة من الفضيلة باستقصاء كثير فى ابداعها لأنه اشرك الناس فى خبراته ومقتنياته وبذل لهم جسده بعينه واقتبل المسافرين فى منزله وكان منزله لهم اكثر مما كان لمالكة وانتصر بقوة جسده للمظلومين وابكم المتعنتين بفهم لسانهوحكمته وأظهر الطريقة الانجيلية لامعة بكافة أفعاله وبيان ذلك أن المسيح قال جل قوله « طوبى للمساكين بالروح » فهذا التطويب احكمه بأفعاله عند قوله « ان كنت احتقرت قضية غلامى أو جاريتى عند احتكامهما بحضرتى لأنى ماذا أعمل اذا تصفح الرب طريقتى أليس كما اكنت فى البطن كانا هما فكنا فى جوف هو ذاك بعينه » وقال المسيح ايضا « طوبى للودعاء فانهم يرثون

الأرض » ومن كان أوفر دعة من ذلك الفاضل الذى قال عبيده فى وصفه « من يعطينا أن نشبع من لحمانه » فبهذه الصـفة كانوا شديدى العشق له قال « طوبى للحزانى فانهم يتعزون » وأيوب ما كان خائبـا من هـذه الفضيلة اسمعه ماذا قال « وان كنت اخطأت كارها فخجلت من كثرة رهط شعبى عن الاعتراف لهم باجتنـابى الشريعة » فمن كانت هذه الحـال حاله فمن المبين أنه قـد كان ينوح بافراط فيـه كثيرا قال « طوبى للجيـاع والعطـاش الى البر » فانظر الى هذا الفعل محكما عنده بافراط فيه قال « كسرت أضراس الظالمين واختلست من وسط أسنانهم ما اختطفوه ولبست العدل وتسربلت الانصاف كمنطقـة » قال « طوبى للرحماء فانهم يرحمون » فهذا الفاضـل ماكان رحوما بأمواله فقط ولا بالباسه العراة واطعامه الجياع وتلافيه الترمل وستره اليتيم وتسليته جوائح طبيعتنا لـكنه كان رحوما مع ذلك يتحزن على كل فاقد قوته وقد كان بصورة أب مشاع لـكل أهل بلده يتحزن على مصائب واحد فواحد منهم فيتلافى بعضها وينوح على بعضها وبألفاظـــه وبتحننه وبأفعـاله وبدموعه وبكل حال كان يعضـد الـذين فى المصـائب صـائرا لجماعتهم ميناء مشاعا ٠

قال المسيح « طوبى لأنقياء القلب فانهم يعاينون الله » فهذه الفضـيلة كانت له على حذو ما اتفق واسمع الله عز وجل شـاهدا له قائلا « انه انسان بار يتقى الله ويحيد عن الشر » قال المسيح « طوبى للمطرودين من أجل البر فان لهم ملكوت السموات » فقد صار له من هذه المحمدة سعة جهـاد ومنها اكتسب ظفره العظيم لأنه ما طرده أناس لـكن الشيطان القديم فى الشريعة طرده لأنه بعد أن أفرغ كافة حيله جاء اليـه وطرده من مسكنه ومنزله ووطنه وأمواله وأخرجه من قنيـاته وأبنـائه ومن صحة جسمه بعينها وطرده الى المزبلة ودفعه الى مجاعة صـعبة شدتها فضـلا عن النـاس الذين أوصلوا اليها اذاهم من نواح مختلفـة قال « طوباكم اذا طردوكم وعيروكم وقالوا فيكم كل كلمة شريرة كاذبين افرحوا وتهللوا فان أجـركم عظيم فى ملـكوت السموات » وقـد استمد من هـذا التطويب مجدا عظيمـا وبيـان ذلك ان الذين لحضروا عنـده حينئـذ ثلبوه بقولهم أنه انما عوقب من جراء ذنوبه واسهبوا عليه أقوالا كاذبة مملوءة من خبثهم لـكنه مع ذلك اذ شارف هؤلاء أن يتورطوا فى خطر اتهامهم اياه اختطفهم من الجائحه المسيرة من الله ولم يضطغن عليهم حقـدا ولا من أجل أمر الـكلمات التى قرفوه بها وفى هـذا

الفعل أيضا تمم تلك الوصية « احبوا أعداءكم وصلوا لأجل الذين يسيئون اليكم ويطردونكم » لأنه أحبهم وابتهل من أجلهم وأزال غيظ الله عليهم وحل خطيتهم على أنه ما سمع أنبياء ولا أناجيل ولا كهنة ولا معلمين ولا أحدا آخر مشيرا عليه بفعل الفضيلة : أرأيت نفسه ما كان أعظم صبرها وكيف كانت كافية لذاتها من الفضيلة ولم تتهذب بتعليم غيرها ولم يرث من آبائه شيئا من الفضائل لأنهم كانوا مظهرين رذيلتهم بكثرة حتى أن بولس الرسول قد قال فى وصف جسده « لا يكونن أحد منكم زانيا أو مستبيحا كعيسو الذى باع بكوريته بأكلة واحدة » ٠

الباب الرابع عشر

« فى أن الشكوك كانت فى أيام الرسل كثيرة وأن المساقين الى العذاب كانوا أكثر وأن رؤساء الديانة ومجامعهم كانوا مفاجئين دواما بالقتل السريع » ٠

قل لى ما احتجاجك فى هذا المعنى اذ قد حدثت فى أيام الرسل حوادث كثيرة مثل هذه واسمع ما قاله بولس الرسول أنه « قد رجع عنى جماعة الذين فى آسيا منهم فيجالوس وهرموجانس » وهكذا نجد أن المعلمين المسيحيين قد سكنوا السجون وقاسوا من أهلهم ومن الغرباء منهم فوادح فى غاية الشدة وقاومهم معلمون كذبة أشد من الذئاب افتراسا وقد تقدم بولس فذكر هذه الحوادث لأهل أفسس اذ استحضرهم الى جزيرة ميليتس وقال لهم « أنا قد عرفت أنه سيدخل اليكم بعد انصرافى ذئاب لا يشفقون على الرعية ومنكم أنتم سيقوم رجال يتكلمون أقوالا مقلوبة ملتوية ليجتذبوا التلاميذ وراءهم » افما اظهر له الاسكندر النحاس شرورا جزيلة وطارده فى كل مكان وحاربه وقارعه وأوقفه فى جهاد هذا مبلغ تقديره أفضى به أن يوصى تلميذه ويقول له احترس منه فانه قد عاند أقوالنا كثيرا ٠

أو ما أفسد أناس من الرسل الكذبة أمة الغلاطيين بجملتها وانعطفوا الى اليهود ايضا أو ما رجم استفانوس جزاء مناداته بالايمان ٠ ألم يقطع هيرودس رأس يعقوب ليرضى اليهود أعداء المسيحية وهكذا من كل ناحية ثارت زوابع الفتن والقلاقل حتى أثرت على كثيرين الا أن المتمكنين فى الدين

ثبتوا واسمع ما يقوله بولس اذ يناشد أهل فيلبى « أريدكم أن تعلموا ياالخوتى أن احوالى قـد اقبلت الى نجاح البشارة اكثر وأزيد حتى أن الاكثرين من اخوتنا فى أمانة ربنا عند ثقتهم بوثقى وتعويلهم عليها يتجاسرون خلوا من خوف أن يتكلموا كلام اللهبأوفر مجاهرة » أعرفت شجاعتهم أعرفتمجاهرتهم أرأيت قـوة يقينهم أرايت عـزمهم ؟ قـد أبصروا معلمهم فى الحبس مطوقا بسلسلة مخنوقا مؤذى مقاسيا مصائبجزيلا عددها أنهم مافتنوا ولا تشككوا ولا ارتجفوا فقط لـكن أعجب من ذلك أنهم أبدوا نشاطا اعظم واتخذوا آلام معلمهم سببا لنجاح جزيل بجهادهم ٠

ولـكنك تقول لى الا أن أناسا آخرين انسحبوا الى ورائهم فأقول لك نعم لست أقاومك أنا فى ذلك وفى كل زمان يوجد كثيرون اذا حدثت هـذه الحوادث انسحبوا الى ورائهم ولـكن ما قـد قلتـه دفعات كثيرة أقوله الآن سبيلهم أن يحسبوا هذا الارتجاع الى الوراء لأنفسهم ولا ينسبونه الىطبيعة الحوادث لأن المسيح الهنا حين مضى من هنا خلف لنـا هذا المورث اذ قال « فى العالم سيكون لـكم ضيق وستقادون الى حضرة ملوك وأمراء وسيكون زمان يظن فيه كل من يقتلكم أنه يقرب لله قربانا » ٠

فمن هذه الحكمة نفهم أمر الذين تشككوا فى كل زمان ليس فى عهـد الرسل فقط بل ان كثيرين تشككوا بصلب سيدنا بعينـه وسيد الـكل وصاروا ازوغ من غيرهم عن الشريعـة وأكثر جسارة على نقضها حتى أنهم عنـد صلبهم اياه قرعوه قائلين « يامن ينقض هذا الهيكل ويبنيه فى ثلاثة أيام » خلصت آخرين فلماذا لا تخلص ذاتـك » « ان كنت ابن الله فانحـدر من صليبك فنؤمن بك » الا أن هؤلاء لا ينبغى أن يحتجوا بعثرة الصليب وجهالته وذلك أن اللص يوبخ هؤلاء كلهم وامثـالهم لأن ذلك قـد أبصره مصلوبا معه فليس عجيبـا أنه ما تشكك فيـه لـكن أعجب من ذلك أنه اتخذ من هذه الجهة لتكريمه موضوعا عظيما للتفلسف واعتلى أعلى من الأوهام الانسانية كلها وخف وارتفع بريشأمانته وتفلسف منالحظوظ المألوفه لأنه اذ أبصرهمصلوبا باليا مضروبا مهانا وشاربا مرارة مبصـوقا عليه يستهزىء به محفل جزيل عـدده ، قـد أوجب الحكم عليه مجلس القضـاء مسوقا الى عقوبة الموت فمـا تشكك بصنف من هـذه الأصـناف لـكنه اذ أبصر صليبه ومساميره واستهزاء جزيلا تقـديره من كثرة الحاضرين والمجتازين المنفسد رأيهم سلك هو الطريقـة القويمة قائلا « اذكرنى يا رب اذا جئت فى ملـكوتك » وايكم

اللص الثالب اياه واعترف بخطاياه وتفلسف فى وصف القيامة وهذه كانت افعاله وما أبصر موتى مقامين ولا برصا مطهرين ولا بحرا ملجما ولا شياطين مطرودين ولا عرج مقومين ولا الجرائح الأخرى التى شاهدها رهط اليهود الزائل شكرهم وفهمهم وبعد أن أبصروها صلبوه لكن هذا اللص ابصره مصلوبا واعترف به الها وذكر مملكته وتفلسف فى النعم المأمولة وأولئك أبصروه مخترعا عجائبه واستمتعوا بتعليمه الكائن بأقواله وبأفعاله فلم يرفضوا المعرفة فقط لكنهم هبطوا مع ذلك الى هاوية هلاكهم الواصلة الى غايتها اذ صاروا به الى صليبه ٠

أرأيت أن الزائل فهمهم المتوانين فى خلاصهم ما يستفيدون من الفوائد النافعة نفعا والجيد عزمهم المستفيقين من الأفعال التى تشكك آخرين غيرهم منها ينتفعون هم أعظم المنافع بها وهذا الحادث تبصره فى يهوذا وفى أيوب وذلك أن يهوذا ما استمد خلاصه ولا من المسيح الذى أنقذ المسكونة وخلصها وأيوب فما أخره ولا ابليس المحال الذى أهلك أناسا هذا مبلغ كثرتهم لكن أيوب بعد أن قاسى آفات وبلايا جزيلة عددها كلل ويهوذا بعد أن عاين الآيات وعملها وانهض أمواتا وطرد جبنا بعد أن أخذ السلطان وسمع أقوالا كثيرة فى وصف ملك السماء وفى نار جهنم الذى شارك مائدة المسيح السرية وساهم التلاميذ العشاء الذى استمتع بمودة وعناية هذا تقديرها كما تمتع بها بطرس ويعقوب ويوحنا واليق ما يقال وأكبر منها بمقدار كثير لأنه فوض اليه حفظ أموال الفقراء ٠ هذا البائس توسوس حينئذ بعد هذه الصلاة الجزيل تقديرها واقتبل الشيطان فى سريرته بحب الفضة وصار دافعا وعمل رأس الأعمال الرديئة اذ باع دما جليلا قدره بثلاثين من الفضة وأسلم سيده بقبلة ٠ كم أناس تظن أنهم شكوا فى المسيح اذ عاينوا تسليمه الصائر بتلميذه ؟ وما قولك فى من كانت البرية مدينته ثمرة العاقر ابن زكريا المؤهل أن يعمد تلك الهامة المقدسة الصاير سابقا لسيده حين سكن فى الحبس حيز نقطع رأسه وصار ذبحه أجرة لرقص زانية كم أناس تظن أنهم تشككوا حينئذ مما جرى عليه وما معنى قولى عن الذين تشككوا فى ذلك الحين كم أناس الآن بعد زمان هذا مبلغ تقديره اذا سمعوا أخباره هذه يتشككون ولماذا أذكر يوحنا وحبسه وذبحه وأذكر أيضا عبيد ربنا ولا التجىء الى سيدى وسيد الكل ٠

البـــاب الخامس عشر

« فى أن الفاقدين فهمهم قد تشكوا من رأس الفوائد الصالحة »

« اعنى من الصليب الذى به أنقذت المسكونة »

وبيان ذلك أن صليب المسيح الهنـا الذى قوم المسكونة وتلافاها الذى جعل الأرض سماء الذى قطع أوصـاب الموت الذى جعل الجحيم عاطلا من الانتفاع به الذى هـدم قلعـة ابليس المحال الذى أبكم الشياطين الذى جعل النـاس ملائـكة الذى نقض محاريب الأصـنام وقلب هيـاكلها الذى غرس فى الأرض هذه الفلسفة الجـديدة المستغربة الذى صنع الأفعـال المريعـة الجسيمة العاليـة أفلم يصر لأناس كثيرين شكا وفتنـة أوليس بولس الرسول يهتف كل يوم دون أن يخجل فيقول نحن ننادى بمسيح مصلوب قد صار صلبه شكا عند اليهود وحمـاقة عند الأمم فقل لى ما رأيك أفمـا كان يجب أن يصلب المسيح أماكان واجبـا أن تقـدم تلك الذبيحة السامية أماكان يجب أن تتم أحكام هـذه المحـامد الجزيل تقـديرها لأن فعلهـا صـار شـكا عنـد الهالـكين فى ذاك الحين وفيما بعـد وفى مدى الزمان كله ؟ ان الشـك لم يتكون من طبيعـة الصليب لـكنه انما يتكون من غبـاوة الـذين تشـككوا ولهـذا الغرض استثنى بولس بهـذا القول فالمسيح عنـدنا نحن المؤمنين من اليهود والوثنيين قـدرة الله وحكمتـه . ان الشمس من طبيعتهـا أن تضر العيون الضعيفة أفلأجل ذلك كان ينبغى أن لاتكون هناك شمس؟ والعسل يتبين عند السقماء مرا فمـا رأيك أيجب أن لا يوجد ؟ والرسل أنفسهم أفما حملوا لأناس كلمة الموت لموتهم وقد صاروا لأناس كلمة من الحيوة لحياتهم أفمن أجل الهالكين لا يجب أن يستمتع الأحياء باهتمام هذا تقديره ؟

وورود المسيح بعينه الذى هو خلاصنا عين النعم الصالحة وحياتنـا الذى أفادنا الفوائد الجيـدة الجزيلة عددها كم أناس صـار ثقيلا عليهم كم اناس منع قبول عـذرهم والعفو عنهم ألم تسمع ما قاله المسيح عز قوله من أجل اليهود « لو لم أجىء لأخاطبهم لـما كانت لهم خطيئـة » . والآن فمـا يملكون احتجاجا عن خطيئتهم فما رأيك اذ صارت خطاياهم مسلوبة الاعتذار عندهم بعد وروده أفمـا كان واجبـا أن يجىء بسبب أولئك الذين استعملوا

الدواء النافع استعمالا رديئا ؟ ومن يقول هـذه الأقوال ولا واحد من الناس ولا من الذين قـد زاغ تمييزهم جـدا · قل لى ماهو الضرر النـاشىء من الـكتب كم أناس تشككوا منها كم بدع فى الدين تولدت من هذهالجهة أفيجب ان تمحى الـكتب بسبب المتشككين أوكان واجبـا أن لا نعطاها فى الابتداء؟ كلا قد كان واجبـا أن نعطاها بسبب المعتزمين أن يستثمروا المنفعـة منهـا ولست أكف أيضا عن أن أقـول تلك الأقـوال بعينهـا سبيلهم أن يحتسبوا الشكوك لهم وينسبوها الى أنفسهم · والمزمعون أن ينتفعوا منها المنـافع العظيمة كانوا قـد تـكبدوا خسارة ليست بيسيرة لأنهم عذبوا بسبب ونيـة غيرهم وزوال ادراكهم ·

البـــاب السادس عشر

فى انه ليس يقتدر عارض أن يضر من لم يظلم هو ذاته

قل لى ما الذى أضر هابيل اذ غدرتبه يد قايينأخيه وقاسى موتا بشعا سابقا وقتـه أوليس اليوم أن يقال انه ربح كثيرا اذ تكلل اكليلا أبهى حسنا؟ ما الذى أضر يعقوب اذ قاسى من أخيه مكاره جزيل مقدارها اذ عدم منزله ومدينته هاربا صـائرا عبدا وحصـل فى شدة عظيمة · ما الذى أضر يوسف اذ صـار نظير ذلك فاقـدا لمـدينته ومنزله صائرا عبدا أسيرا معتقلا وتورط فى الخطر الى أقصـاه واصطبر على مثالب هـذه صـفتها فى منزله وفى غربتـه · ما الذى أضر موسى اذ قرفه رهطه الجزيل عدده دفعـات كثيرة وتذمر عليه الذين أحسن اليهم · ما الذى أضر الأنبيـاء كلهم اذ قاسوا من اليهود مكاره كثيرا عـددها · ما الذى أضر يعقوب اذ حاربه ابليس المحال بحيله التى هـذا مبلغ كثرتها · ما الذى أضر الثلاثة الفتيـة ودانيـال اذ قاسوا أشد الخطر فى حياتهم وفىحريتهم وفى النوائب الأخرى التىدهمتهم· ما الذى أضر ايليـا النبى اذ عاش فى فقر شـديد فى أقصى غايته مطرودا هاربا ساكنا البرارى صـابرا طائرا متنقلا دائما · ما الذى أضر داود اذ قاسى من شـاول نوائب جزيلا تقـديرها وتكبد أخيرا من ابنه مصاعب هذا تقديرها أفما أشرق فضله أكثر اشراقا · بل انه حينما قاسى المكاره الى أقصى غايتها كانت أنفع له من الوقت الذى تمتع فيـه برخاء أيامه ويسرها · وما أضر يوحنا اذ قطع رأسه · ما الذى أضر الرسل اذ بعضهم قطعت رؤوسهم

ودفعوا الى عقوبات أخرى جزيل عددها · ما الذى أضر الشهداء اذا انفصلت النفس منهم بعـــذاب شـــديد وليس هـــؤلاء كلهم الذين أشرق فضلهم حين اضطهدوا وحين قاسوا الشدائد فى أقصى غاية ووقفوا وقوف الأبطال ·

البـــاب السـابع عشر

فى أن الصليب مثال لعناية الهنا العظيمة بنا ولصلاحه وحبه ايانا

فاذا سبحنا سيدنا العـام سؤدده لأجل نعمه الأخرى كلها ألسنا نعجب لأجل هـذا الانعام أكثر ونمجده منذهلين منه لأجل صليبه · لأجل موته ذلك الموت اللعين الذى كان قـديما أوليس بولس الرسول يجعل موته هذا علامة لحبه ايانا من كل وجه لأنه مات من أجل أناس اردياء؟ لم يذكر أن الله اعتنى بنـا فخلق لنـا السماء والأرض والبحر والبرايا الأخرى كلها التى خلقهـا المسيح لحاجتنا وراحتنـا لـكنه ذكر الصليب دائما قائلا « ولـكن الله بين محبته لنـا لأنه ونحن بعد خطاة مات المسيح لأجلنـا » ومن هـــذه الجهة يزيدنا آمالا صـالحة بقوله هذا القول « لأنه ان كنا ونحن أعداء قد صولحنا مع الله بموت ابنـه فبالأولى كثيرا ونحن مصالحون نخلص بحياته » (رو ٥ : ٨ ــ ١٠) أوليس بهذا الصليب المعتز عنده كثيرا احتمل كل ثقل وبه أفتخر افتخارا عظيما وتلذذ للغاية اذ كتب الى أهل غلاطية هذا اللفظ « حاشا لى أن أفتخر الا بصليب ربنـا يسوع المسيح » ولا سبيل لتعجبنـا من قول بولس هـذا وفرحه بالصليب وافتخاره وتجمله به لأن الرب الذى تألم عليه يدعو الى هذا الفعل مجدا لأنه قال جل قوله « أيهـا الآب قد أتت الساعة · مجد ابنـك ليمجد ابنـك أيضا » (يو ١٧ : ١) كتب هذه الألفاظ وقال هذا القول قبل أن يأتى الروح القـدس لأن يسوع ماكان بعد قـد مجد اذ دعى الصليب مجدا وحين شاء أن يتبين لنـا حبه ماذكر آياته وبدائعه البتة لـكنه أورد صليبه الى وسط كلامه عند قوله على هذه الحال « هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنـه الوحيد لـكى لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحيـاة الأبدية » (يو ٣ : ١٦) وقـد قال بولس الرسول أيضا « الذى لم يشفق على ابنه بل بذله لأجلنا أجمعين كيف لا يهبنـا أيضا معه كل شىء » (رو ٨:٣٢) ولمـا وعظنا واستمالنا قال « فان كان وعظ مافى المسيح ان كانت تسليـة ما للمحبـة ان كانت شركة ما فى الروح ان كانت أحشاء ورأفة فتمموا فرحى

حتى تفتكروا فكرا واحدا ولكم محبة واحدة بنفس واحدة مفتكرين شيئا واحدا · لا شيئا بتحزب أو بعجب بل بتواضع حاسبين بعضكم البعض أفضل من أنفسهم ثم أورد المشورة وقال هذا الرأى « فليكن فيكم هذا الفكر الذى فى المسيح يسوع أيضا · الذى اذ كان فى صورة الله لم يحسب خلسة أن يكون معادلا لله · لكنه أخلى نفسه آخذا صورة عبد صائرا فى شبه الناس · واذ وجد فى الهيئة كانسان وضع نفسه وأطاع حتى الموت موت الصليب » (فى ٢ : ١ ــ ٨) واذ أشار علينا بالحب أورد هذا الصليب الى وسط كلامه فقال « فليحب بعضكم بعضا كما أحبنا المسيح وأسلم ذاته من أجلنا قربانا وضحية لله » ولما أراد أن يعبر عن كيفية محبة الرجال لنسائهم قال أيها الرجال أحبوا نساءكم كما أحب المسيح الكنيسة وأسلم نفسه لأجلها » ولكى يرينا مقدار شوقه الى موته لأجلنا ليفتدينا أجاب بطرس حينما أراد أن يمنعه عن الصليب بقوله « حاشاك يارب » أجابه « اذهب عنى يا شيطان أنت معثرة لى لأنك لا تهتم بما لله لكن بما للناس » (مت ١٦ : ٢٢ و٢٣) موضحا بذلك مقدار حرصه على أن يخلصنا بصليبه · ومن أنه جعل قيامته فى الليل ولم يعلنها للكل ولكن صليبه جعله فى وسط المدينة فى وسط العيد فى وسط المجمع من اليهود بمحضر مجلس قضاء الرومان ومجلس حكم اليهود كليهما حين جمع العيد كافة الملتئمين فيه فى وسط النهار بمشهد المسكونة العام واذا كان الحاضرون وحسدهم أبصروا الحادثة الكائنة أوعز الى الشمس أن تخبر باستتارها كل موضع المسكونة وتذيع ما اجترىء به عليه ·

على أن هذا الحادث على ما سبقت فقلت قد صار شكا لأناس كثيرين لكن مايجب أن نصغى الى أولئك المتشككين لكن سبيلنا أن نتأمل المتخلصين المحكمين الفضائل وما معنى تعجبك والصليب فى كل مكان يظهر بهيا لامعا حتى انه سمى مجدا وفاخر به بولس الرسول لأن فى ذلك اليوم الرهيب المزمع أن يجىء فيه الرب معلنا مجده اذا حضر مجلس حكمه المخيف اذا وقفت لديه كافة طبيعة الناس اذا اندلع لهيب النار اذا أتت الى أسفل جموع ملائكته وقواته العلوية بغتة اذا ظهرت أرباب الظفر تلك الجزيلة عددها اذا لمع أناس كالشمس وأشرق أقوام كالنجوم واذا حضرت صفوف الشهداء الكثيرة وجماعة الرسل اذا أقبلت مواكب الأنبياء اذا سيق الى الوسط محافل الرجال الشجعان كلهم حينئذ فى ذلك الظهور المجيد

يجيء الصليب باعثا شعاعاته البهية لأنه قال عز قوله « حينئذ تظهر علامة ابن الانسان فى السماء والشمس تظلم والقمر لا يعطى ضوءه » وأما علامة الصليب فتظهر لامعة فيالبهجةهذا الألم ويالبهاء الصليبالشمس تظلموالنجوم تتساقط تساقط الورق والصليب يلمعأبهى من تلكالنجوم المنيرة تلألؤا مشتملا السماء كلها أرأيت كيف يتجمل به سيدنا اذا يريه ذلك اليوم للمسكونة كلها باشراق هذا مبلغ كثرته ٠

البـــاب الثـــامن عشر

فى أن الفائدة ليست قليلة التى صارت للـكنيسة من العوارض العارضة لها

فاذا رأيت الآن أناسا متشككين من تلقاء الحوادث العارضـة فافتكر أولا ذلك الافتكار أنهم لم يحوزوا الشكوك من الجهة لـكنهم انما امتلكوها من جهة سقمهم وضعفهم وهذا المعنى يوضحه الذين ما اثر فيهم هذا العارض وتأمل مع ذلك أن أناسا كثيرين أشرق فضلهم من هذه الجهة أعظم اشراقا اذ مجدوا الله عز وجل شاكرين له بكافة حرصهم ومهما ذكرنا فلا ننظر الى المتزعزعين المتمائلين لـكن انظر معهم الى الثـابتين ثبوتا مكينا الذين قـد عدموا أن يكونوا مزعزعين أقوى مما كانوا ٠ لا نتأمل المرتجفين لـكن تأمل السائرين برياح ساكنة وهم أكثر من الراجعين الى الوراء بجملة كثيرة فان كان أولئك المنسحبون الى التشكيك أكثر عددا فان واحدا عاملا مراد الرب لأفضل من أناس كثيرين متجاوزين شريعته ٠

البـــاب التاسع عشر

(فى أن هذا الموضع كان فيه شهداء كثيرون فى حيـاتهم وبعـد وفاتهم)

فليخطر بفطنتك جموع الذين تكللوا بأكليل الشهادة ما كان أكثرهم لأن طائفـة منهم ضربوا بالسياط وجماعة طرحوا منهم فى السـجون وبعضهم طوقوا بالسلاسل وبعضهم عدموا وطنهم وفيهم من فقـدوا نعمتهم ويسرهم اقوام نقلوا الى النفى وبعضهم ذبحوا وأقوام شرعوا فى ذبحهم وأناس ذبحوا منهم بعزمهم لأنهم لـما جردت الحراب عليهم وارهفت السيوف لهم وتداركت الويلات كل يوم اليهم وعصفت بهم رياح الذين فى الرياسات واشتد غضبهم عليهم وتقـاطرت المخـاوف وأنواع كثيرة من التعـذيب والعقـوبات اليهم ما خضعوا ولا خاروا لـكنهم وقفوا على الصخرة وقـد عدموا أن يكونوا متزعزعين وآثروا أن يعملوا كل ماأوضح شجاعتهم وأن يقاسوا كل ماأصابهم حتى لا يشاركوا الذين تجاسروا على هذه الافعـال والأمثـال فى تجاوزهم شريعة الههم وما تجرد لهـذا الجهاد رجال وحـدهم لـكن قـد وجد معهم فى ذلك نساء وتشجعن فى جهات كثيرة أكثر من الرجال كثيرا وما تجرد نساء فقط لـكن قـد وجد معهم أيضا أحداث أيضا وصبيان جدا فقل لى أهـذه الفوائد صـغيرة عندك أن تربح الـكنيسة رهطا من الشهداء هذا المبلغ مبلغه فهؤلاء كلهم شهداء لأن ليس يكون أولئك النـاس شهداء وحدهم الذين سحبوا الى مجلس قضـاء وأمروا بالتضحية لأصنامهم فلم يقبلوا وقاسوا ماقاسوه لـكن هؤلاء أيضا يكونون شهداء وهم الذين اقتبلوا أن يقاسوا مكروها من أجل غرض أى كان من الأغراض المظنونة محمودة عند الله وان بحث باحث باستقصاء بحثه وجد أن هؤلاء شهداء أكثر من أولئك لأنه ليس فعلا متساويا أن يقتبل أحدنا أن يقاسى مكروها ولا يرضى أن تهلك نفسه بالسقوط فى الاثم من شدة الاضطهاد بل يتكبد هـذا العذاب بعينه من أجل محمدة يحصل عليها فهذا دليل على أن اكليل الشهداء قـد تكلل ليس للذين ذبحوا وحدهم لـكن قـد لبسه معهم أيضا الذين سيقوا لهـذا الموت وصاروا معـدين له وهـذا القول بعينه قـد قلته فيما سلف أن الذى قد أعد للذبح وأطاع صار كالمذبوح بعينـه وهـذا ما أريد أن أحققه وأبرهنه من كلام بولس لأن بولس المغبوط اذا ابتدأ أن يعد الذين أشرق فضلهم فى زمان آبائنا وأجدادنا وجعل ابتداء

وصفه من هابيل ثم تقدم متدرجا الى نوح والى ابراهيم واسحق ويعقوب وموسى ويشوع وداود وصموئيل وايليا واليشع استثنى بأن قال « لذلك نحن ايضا اذ لنا سحابة من الشهود مقدار هذه محيطة بنا » (عب ١٢ : ١) على أن ليس هؤلاء كلهم ذبحوا واليق ما يقال أن ولا واحد منهم ذبح ما خلا اثنين أو ثلاثة وهم هابيل ويوحنا وزكريا والآخرون كلهم انتهى عمرهم بوفاتهم ويوحنا بعينه فلم يؤمر بالتضحية لصنم فذبح اذ لم يخضع لذلك لكنه انما قتل لقوله كلمة واحدة لأنه اذ قال لهيرودس « لا يحل لك أن تأخذ هيروديا امرأة فيلبس أخيك » لكن أخذ الحبس وصار من ذلك الى الذبح فان كان من قاوم زواجا غير شرعى وصل به الأمر الى القتل ولما قطع رأسه صار شاهدا وهو أول الشهداء فالذين قد قاسوا ذبحا قاسيا وما تجردوا مقابل هيرودس وحده لكنهم تجردوا مقابل هيرودس وضابطى مملكته والمسكونة كلها وما قاوموا زواجا منحرفا عن الشريعة فقط لكنهم انتصروا لشرائع الههم ولفرائض كنيسته وقد أزيل حفظها وأوضحوا ذلك بأقوالهم وأفعالهم ومجاهرتهم رجالا ونساء وصغارا حتى كانوا يشرفون على الموت كل يوم ويموتون ٠

فكيف لا نحسب هؤلاء فى صف الشهداء ولعمرى أن ابراهيم ما ذبح ابنه الا انه بنية وعزم قد ذبحه وسمع من العلو صوتا قائلا انك ماشفقت على ابنك الحبيب من أجلى فمن هذه الجهة اذا كان عزمنا فى كل مكان تاما فى الفضيلة فنأخذ اكليلا تاما كاملا فان كان ذلك الفاضل لما لم يشفق على ابنه أذيع ذكره ونوه باسمه على هذا المثال فهؤلاء اذ لم يشفقوا على ذواتهم بل ثبتوا حياتهم محتملين شتائم ومثالب وأذى وهذا ليس بالأمر الهين ولذلك يتعجب منهم بولس الرسول قائلا « اذا اشتهرتم أحيانا بعذاب وبضغطات وحصلتم أحيانا مشاركين الذين تصرف فيهم هكذا » ٠

وما الذى يقوله قائل فى وصف الرجال والنساء الذين جهدوا فى انالة المعذبين الراحة لأن نسوة كثيرات بذلن أملاكهن حتى يحصل للمعتقلين والمنفيين تسلية من شقوتهم الجزيل تقديرها واقتبلن اختلاس ماكن يمتلكنه بسرور على حسب قول الرسول وأناس بذلوا حياتهم بعينها وهكذا كان هؤلاء المجاهدون ذخرة الكنيسة وكنزها حتى أن الذين كانوا فيما سلف طريحين فى ونيتهم قد صاروا أسرع من النار والذين كانوا مستمرين فى

ملاعب الهزل خرجوا الى البرارى جاعلين الروابى والجبال كنيسة والغنم اذ ليس لها أحد يرشدها قد انتقل قطيعها الى رتبة الرعاة · والجند من أجل مجاهرتهم وشجاعتهم قد انتقلوا الى رتبة قائدهم وكلهم يبينون بحرارتهم اللائقة بهم وبحرصهم اتصالهم بسيدهم ·

أما تتذهل وتتعجب من مبلغ الفضيلة التى تكونت من هذه الجهة لأنه ليس العائشون عيشة قويمة فقط أظهروا شجاعتهم لكن كثيرين من المولعين بالنظر الى الملاعب والهزل التائهين الباهتين الى سباق الخيل المسارعين اليها طرحوا كافة حياتهم الأولى وجاهدوا حتى انتصروا على الملوك والولاة بثباتهم واحتقروا العذاب وتضاحكوا على الأهوال موضحين أن كل انسان يمكنه أن يعتنق الفضيلة مذهبها وانه يمكن من كان هالكا جدا اذا تاب وانتقل أن يلامس بنظره السموات بعينها · فاذا قد رأيت آيات الظفر هذا مبلغها وأكاليل مضفورة هذا مقدارها فى كثرتها وتعليما كليا جزيلا هذا مبلغه قل لى من أين تشك هل من الظالمين تشك ؟ لكنى ما قلته لست أكف من أن أقوله أن هؤلاء المتشككين سبيلهم أن ينسبوا سبب هلاكهم الى أنفسهم لأن هذا المعنى بجملته قد أوضحه لنا الكلام الالهى لأنه ليس كل الذين ترونهم بثياب التقوى أتقياء فكم من كثيرين يلبسون صورة التقوى وهم ينكرون قوتها فهؤلاء هم الذين يهزمون حالا ولا يثبتون · هم الذين يلبسون ثياب الغنم وهم ذئاب وكما أن النار تظهر قيمة المعادن هكذا التجارب تظهر المؤمنين من غيرهم وهذا المعنى اذ دل عليه بولس قال « يجب أن تتكون فيكم بدع من الاختيار والهوى حتى يصير المتهذبون فيكم ظاهرين » ·

البـــاب العشرون

فى أنه قد عرض فى أزمان الرسل أصعب من هذه العوارض

فلا يذهلك أى عارض تراه مهما كان قاسيا لا تخش اذا رأيت كاهنا قد صار شريرا متوحشا على رعيته أو واحدا من الرؤساء أو من ضابطى المملكة مظهرا حنقا وجفاوة كثيرة لكن تفطن بأنه قد عرض فى أزمان الرسل أصعب من هذه العوارض لأن ضابط قضيب المملكة فى زمانهم كان سبب نقض الشريعة لأن بولس الرسول لقبه هذا اللقب اذ كان جامحا الى كل نوع من أنواع الرذيلة سائرا بخبثه أشر من كافة الملوك الذين تقدموه الا أن هذا العنيد لم يضر الكنيسة ولا أولئك الرجال الأبطال لكنه أظهرهم أبهى اشراقا مما كانوا . وكهنة اليهود كانوا بهذه الصفة أقواما أردياء خبثاء حتى قد بلغوا فى شرهم الى أن أوعز المسيح الى شعوبهم أن يهربوا من طريقتهم ومن مماثلتهم لأن مخلصنا قال عز قوله « على كرسى موسى قد جلس الكتبة والفريسيون وكل ما يقولون لكم أن تعملوه فاعملوه ولا تعملوا نظير أعمالهم » على أنه فضلا عن شر الكهنة وضابطى المملكة قد أشرق فضل الرسل فكللوا وما ضرهم عارض لكنهم من هذه الجهة أشرقوا اشراقا عظيما فما سبيلنا اذا أن نستغرب نحن الحوادث الحادثة فان المحن والتجارب هى مقترنة فى كل مكان بالمستقيمين دائما . تأتيهم من أهلهم من الغرباء منهم ولهذا المعنى لما أبصر بولس الرسول قطرات الشدائد والأخطار متقاطرة عليهم وخشى أن يرتجف من هذه الجهة أقوام من تلاميذه قال حين كاتبهم « قد أرسلت اليكم تيموثاوس حتى لا يتزعزع أحد منكم فى هذه الشدائد والضغطات لأنكم قد عرفتم أننا موضوعون لهذا الاحتمال » ومعنى قوله ان الآلام تابعة لنا ولابد أن نقاسى بلايا كثيرة لأنه قال « اننا موضوعون لهذا الاحتمال » وكما أن الأصناف التى تباع فى السوق لهذا الغرض تبتاع وتشترى فكذلك عيشة الرسل لهذا الفعل وضعت لتعرف وكلما قاسوا مكروها كلما بان فضلهم فلا ننتظر فى وقت من الأوقات أن نمتلك صنفا من راحة خارجة ومع ذلك فنحن أكثر الناس سرورا داخليا . فجميع الذين يستفيقون ليس من شأنهم فقط ألا يؤذوا من آلامهم لكنهم مع ذلك يستفيدون منها فائدة عظيمة فلذلك لما تكلم الرسول عمن بشروا ضده وقاوموه قال « سواء كان بعلة أنه بحق ينادى بالمسيح

وبهذا أنا أفرح ، وقال « ان وثقى ألت أكثر الى تقدم الانجيل » وقل لى ما رأيك فيما جرى فى عصر موسى النبى فى وسط مصر أفما قد أمهل الله للسحرة أن يقاوموه أفما يذكر بولس السعيد هذا الخبر فيقول « كما قاوم يانيس وينبريس موسى على هذا النحو يقاوم هؤلاء القوم » وعلى هذه الجهة مانقصت الشكوك فى وقت من الأوقات والأزمان ولا خلا من العالم المكللون بها فهذه الحوادث كلها افتكر فيها ولا تفتكر فى هذه العوارض وحدها لكن تصفح مبلغ الفائدة التى تكون من هذه الجهة وتأمل ذلك المعنى ان أناسا آخرين تتكون لهم من هذه الحوادث أقوال يمتنع التكلم بها لأن ليس يمكنا أن نعرف الغوامض كلها فان الحظوظ الأصلح عاقبة ستاتينا بعد هذه الحوادث والعاقبة البديع فعلها ستكون أكثر منها على حذو ما جرى فى عصر يوسف وذلك أن ابتداء ما عرض له جرى بصعوبة وتمادت أحواله الى مدى طويل وحصلت اضدادا للوعد الذى وعد به ولكنها صارت فيما بعد أعظم من الحظوظ التى كانت تنتظر له وهكذا فى أوان صلب ربنا فقد كان أمره مهينا فى أول الأمر ولكنه تحول الى مجد عظيم . وبعد ذلك سار تلاميذ ربنا الى الهرب وفى دواعى الطرد وفى الحروب وفى الاغتيالات وكانوا مستترين مخفيين مرتاعين وفى هذه الحال أنذروا بكلام انذارهم فى كل محافل اليهود وكانوا يسوقون الذين يؤمنون بربنا ويسجنونهم ويمزقونهم وما حاجتى أن أذكر ذلك وأذكر اضطهاد الرؤساء لهم لأن واحدا خياميا هو بولس المستمد السلطة منهم استعمل جنونا هذا المبلغ الجزيل مبلغه وقد بلغ فيه الى أن يسحب رجالا ونساء ويزجهم فى الحبوس ولكن أنظر كيف خاف بعد هذه الأفعال هذا المطارد على كافة الذين آمنوا وسما فى فضله عليهم وتجاوز فأشرق فعل الصليب أكثر من اشراق الشمس واشتمل المسكونة كلها وضبطها .

البـــاب الحادى والعشرون

لم صارت المحن كثيرة فى العهد العتيق والجديد

فان قلت فلأجل أى سبب حدثت فى العهد العتيق والجديد فوادح خطرة هذا مبلغها ومحن هـــذه مقدارها واغتيالات هـــذا مبلغ كثرتها فاعرف أن سبب حدوثها هو أن عمرنا هـــذا الحاضر هو معركة صراع وفرصة ارتياض وجهاد وكور تصـــفية واظهار للفضـــيلة وكما أن الدباغين يتناولون الجلود فيقبضونها بكيفية خاصـــة ويمدونها فى النعد والحيطان حتى تؤهل لتصنع وصـــاغة الذهب يولجون الذهب الى النـــار الى أن يجعلوه خالصـــا من كافة غشه ومعلمو الصراع يروضـــون المجاهدين فى معركة الجهاد بأتعاب كثيرة ويعاركونهم أشد من معركة معـــانديهم حتى يحكموا فى أجســـامهم الارتيـــاض فى المصـــارعة كما ينبغى احكامه ويكونوا متفوقين فى جهـــادهم مستعدين للقبض على أعـــدائهم فـــكذلك يعمل الله عز وجل فى هذا العالم اذا أراد أن يجعل نفسا ملائمة للفضيلة فيقبضها ويسبكها ويدفعها الى تعذيب المحن ويهذبها حتى يشدد المتوانين ويصير المتهذبين أوفر تهذيبـــا ويمتنع اصطيادهم باغتيالات الشياطين عليهم ويجعلهم كلهم ملائمين لقبول النعـــم الصالحة المـــأمولة لأنه قـــد قال أن رجلا قـــد فاته ان يمتحن ويجرب فذاك قـــد خاب من الانتفاع به . والضغطة من شأنها أن تولد صبرا فمن ثبتوا هم من كانوا أوفر من غيرهم صبرا فلأجل هذه العـــلة أهمل أيوب يقـــاسى كل ماقاســـاه لـــكيما يستبين أوفر تهذيبا وحتى يســـد فم ابليس المحـــال ولهذه العـــلة أهمل رسله حتى يصيروا هم أوفر الشجعـــان وحتى يوضح من هذه الجهة قـــدرته لأن هـــذه العلة ليست صغيرة ولذلك قال لبولس عندما التمس راحة وتخلصا من المصـــاعب التى احتوت عليه « تكفيك نعمتى لأن قوتى فى الضعف تكمل » .

الباب الثانى والعشرون

« فى أن فواجىء المحن ليست مما لا تشكك فقط الصائب عزمهم اذا ميزوها لكنها مع ذلك تنفعهم حتى عند الوثنيين » ٠

لأن الذين ما تقدموا بعد الى الاعتقاد بالدين المسيحى يستفيدون اذا رأوا احتمالنا وصبرنا فائدة عظيمة لأنهم اذا رأوا النصارى مظلومين مثلوبين وفى الحبس ساكنين قد تكاثر الاعتداء عليهم مقطعين محروقين مغرقين وما يخضعون لانكار دينهم ولا بصنف من صنوف الشدائد ٠ فتفطن فى مقدار ما يؤثر بهم ذلك اذ يكون موضوعا لتعليم أوفر نفعا ولهذا المعنى سمع بولس الرسول هذه الألفاظ « تكفيكنعمتى فان قوتى فىالضعف تكمل » وهذا الغرض يتجه لنا أن نبصره فى العهدين العتيق والجديد ٠ تفطن فيما قاساه نبوخذ نصر الملك وقد كان واجبا من ثلاثة صبيان مأسورين مكتوفين مطروحين فى النار ولبث مقهورا وقد كان جيشه الجزيل عدده حاضرا عنده ٠ ولم يقتدر أن يقهر ثلاثة أجسام مستعبدة غائبة من وطنها من حريتها من كرامتها من مقدرتها من اموالها عادمة السكنى مع اهلها ولو لم يطلق ذلك الحريق لما كانتراية ظفرهم صارت بهية بهذه الصورة لامعة ولا كان اكليلهم حصل بهذه الصفة بهيئة حسنة ٠ تأمل ما تكبده هيرودس وقد كان لائقا به اذ وبخه المعمدان حين أبصره ولم تمنعه السلسلة التى غله بها عن مجاهرته لكنه قد اختار أن يذبح وذلك عنده افضل من اهماله حرية فمه تلك الحسنة مجاهرتها وتفهم أن هذه الافعال متى ابصرها وسمعها أحد العائشين فى ذلك الوقت أو السكائنين فيما بعد ولو كان من المتوانين جدا الحاوين عقلا صغيرا فى تمييزه كيف يستفيد منها أعظم المنافع ويذهب رابحا ٠ لا تذكر لى الزائل فهمهم الأغبياء الذين قد صاروا لحوما بذواتهم كثيرى الوهم فان هؤلاء ليسوا يذلون فى هذه المحن فقط لكنهم يغلطون فى كل حادث بمنزلة شعب اليهود الذى أكل منا وخبزا وكان على هذا المثال أيضا ينتقد ربه اذ كان فىمصر ولما استخلص من مصر ٠ وعند حضور موسى وعند انصرافه ٠ لكن احضر الى الوسط أولئك المستفيقين المتيقظين وافتكر كم منفعة استثمروها كانت لائقة بهم اذ ابصروا ثقة أنفسهم فاقدة أن تكون منقلبة وبصيرتهم عادمة أن توجد مظلمة ولسانهم مملوءا مجاهرة فاذا كان انسان البرية يوحنا المعمدان قهر الملك وهو مستقل فلم يصر متراخيا ولم

يلبث صامتا حتى قطع رأسه · فلا تقف عند هذه الأوصاف لـكن ابحث عن الأفعـال الـكائنة بعد ذلك · هيرودس قطع ويوحنـا قطع ، فمـن منهمـا مطلوب فى النـاس كلهم ؟ ومن هو المحسود ؟ ومن هو الذائع ذكره ؟ ومن هو المتكل ؟ ومن هو الممدوح ؟ من هو المستعجب منه ؟ ومن هو الظافر ؟ من منهما يوبخ الى اليوم ؟ أفما يوحنـا يهتف فى كل كنيسة « لا يحل لك أن تأخذ هيروديا امرأة فيلبس أخيك » وهيرودس يشـهر به بعـد وفاته بزناه وبانحرافه عن الشريعة ومخالفته وبجسارته · وتأمل مع ما قلنـاه قوة المقيد ما كان أعظمها وضعف المقتصب ما كان أشده اذ أنه ما استطاع أن يصمت لسانا واحـدا لـكنه اذ أبطله فتح عليه عوض ذلك اللسان ومعـه السـنة جزيل عـددها · وهـذا الفاضل بعـد موته أوقع الرعب فى قلب ذابحه حتى بعـد ذبحه اياه لأن بهذه الصـورة زعزع قلبـه الخوف منه الذى أفضى به الى أن يتوهم فيـه أنه قـد قام من بين الأموات وأنه حينئـذ يجترح العجائب وهو الآن منذ ذلك الوقت وكل وقت يوبخه فى المسكونة كلها بذاته وبآخرين غيره لأن كل واحد من المؤمنين اذا قرأ الانجيل يقرأ هذا القول « لا يحل لك أن تأخذ هيروديا امرأة فيلبس أخيـك » وهـذا يكون فى مجـامع المؤمنين ومخالطاتهم التى فى منازلهم التى فى أسواقهم التى فى كل مكان يحويهم اذا ذهب الى بلاد فارس الى بلاد الهنـد الى بلاد السودان ان مضيت الى كل ارض تبصرها الشمس لو توجهت الى أقاصى الدنيـا تسمع هـذا الصـوت وتبصر ذلك العـدل هاتفـا الآن أيضا رافعـا صـوته موبخا رذيلة الغاصب لا يصمت فى وقت من الأوقات أصلا · فها قد أفاده صبره الـكامل وما الذى أضره من وفاته ما الذى ناله من موته ما الذى تأذى به من سلسلته ما الذى أضره من حبسه بل ما أكثر الذين ثقفهم وهـذبهم من النـاس المالكين عقلا بواسطة الأقوال التى قالهـا من النوائب التى قاساها والألفاظ التى ينـادى بها الآن أيضا والتى نادى بها حينئـذ اذ كان فى جسده حيـا فلا تقولن لماذا رضى الله لعبـده أن يموت شهيدا لأن موته كان اكليلا ولم يكن موتا ولـكنه كان أعظم الحظوظ ومقـدمة حيـاة تعلم فلسفة الاحتمال والصـبر وليس يحصل لك الا بضرك صـنف من أصـناف هذه النوائب وأمثالها فقط لـكنك مع ذلك تستفيد أعظم المنـافع وأجلها وما قولك فى المرأة المصرية أما قرفت يوسف أو ما تجنت عليه أو ما قيدت الصـديق أو ما خلدته فى الحبس أو ماأوقعته فيخطر واصل الى أقاصيه أو ما قتله قتلا بتقولها عليه أو ماوضعت حوله ظنا خبيثا فما الذى ضره من ذلك فى ذلك الوقت أم الآن لأن على مثال

جمر نار يحجبه تبن يظن فى الابتداء أنه يستره فيأكل الجمر على غفلة التبن الموضوع عليه ويضرم ذلك التبن بعينه اللهيب عاليا ارفع علوا يكون مثال الفضيلة ان ظن ظان أنها تعسف وتعنت فقد تظن لعمرى فى مبادئها ومقدماتها أنها محجوبة الا أنها بالعوائق التى تعترضها تزهر أزهارا عظيما وتصل أخيرا الى السماء بعينها لأن ما الذى صار من الحظوظ سعيدا أسعد من حظ ذلك الشاب لأجل التجنى عليه فبسبب الاغتيال العارض له اذ وصل الى كرسى الوزارة ومجد الملك لأن معالى الشرف فى مفاخر التوفيق والاقبال والأكاليل هى مقترنة بأوجاع النوائب والمحن حتى أن جميع الناس الذين قد عرفوا فضيلة هذا الفاضل يمدحونه فى كل مكان من المسكونة وبعد كثرة زمان جزيل تقديره ما قل ذكره لكن صور عفته وفضيلته مرفوعة فى كل موضع من المسكونة أبهى حسنا من تماثيل الملوك وأوضح بيانا فى بلد الروم فى بلد العجم فى فطنة كل واحد منا فنبصره كلنا مضبوطا مخنوقا مشيرا الى تلك الزانية الشقية التعيسة بالمشورات الواجبة مستوردا العظات الناشئة منه كلها لتخليص تلك البائسة مخجلا زوال حشمتها وفقد خجلها مخمدا أتونها مريدا أن يخطفها من الاثم ويسيرها الى هدوء وسكون فلما زاد اضطراب موجها وكانت سفينتها قد غاصت فى الماء هرب هو من أمواجها محاضرا الى الأرض الصلبة مخلفا ثيابه فى يدى تلك الشقية ظاهرا بتعريته أبهى حسنا من المتسربلين الدوابيج البنفسجى لونها مقيما ظفر عفته بهيا حاله حال صنديد فريد مظفرا ولسنا ننقص قط من ذكره بهذه الأوصاف لكننا نمعن فى وصفه الى أبعد غاية ونبصره أيضا مسوقا الى الحبس مكتوفا ضاربا فيه زمانا طويلا ونعظمه لأجل هذه النوائب التى هى أفضل أحواله كثيرا ونطوبه وننذهل منه ونمدحه ٠

فان كنت عفيفا اذا تأملته تصير أشد عفافا وان كنت فاسقا ستنتقل بحديثه الى العفة سريعا وتصير أفضل حالا وهذه الألفاظ كلها قد كررناها فلا يرجفكم عارض لكن ارتجفوا من العوارض الحادثة وليكن لكم صبر مثل المجاهدين تعليما للثبات والصبر واذا رأيتم عيشة كافة الناس المتجلدين العالى محلهم منسوجة بهذه المحن فلا ترتجفوا ولا تنزعجوا لا فى محنتكم ولا فى محن غيركم فان الكنيسة من ابتدائها ترتاب فى تكاثف الموج عليها وعلى هذه العجيبة نمت وكثرت فلا تستغربوا اذا عارضا فانه ما حدث حادث ما كان واجبا لكن على ما يجرى الأمر فى املاك الدنيا فلا تجىء اللصوص الى حيث قد يكون تبن وحشيش ولا الى موضع فيه

رمل وتراب لـكن الى الموضع الذى يكون فيـه ذهب وجواهر ولؤلؤ هنـالك يحتال لصوص البحر ولصوص البر وناقبوا الحيطان ويغتـالون اغتيـالا متصـلا وكذلك ابليس المحتـال حيث يرى ثروة زائدة فى نفس فاضلة هنالك ينصب حيله ويقدمها ولـكن الذين يغتال عليهم اذا ثبتـوا ما ينقص حالهم بالضيق لـكنهم مع ذلك يجمعون ثروة لفضيلة أعظم تقديرا ٠

البـاب الثالث والعشرون

« فى أن المحن العارضة دلالة عظيمة على تهـذيب الـكنيسة وأنها قد نفعت كثيرا » ٠

وهذا المعنى قد حدث الآن وهذا دلالة عظيمة على ثروة المحامد الكائنة وعلى شجاعة الـكنيسة لأن ذلك الشيطان الخبيث حين أبصرها زاهرةمتهذبة بمستعلية الى العلو فى لحظة صـغيرة من الزوان قـد صـار فيها حرصكثير وتزايد المتهذبون فيما هو أفضل وانتقل العائشون فى الخطـايا الى التوبة وعاين المسكونة كلها متعلمة من هـذه الجهة حرك حيله كلها وأضرم حروبا من ذوى قبيلتنـا وكما جرى منه على ايوب انه اصـدر له حينـا فقد أملاكه وحينـا عدمه أولاده وحينا مرض جسده وحينا لسان امرأته وحينا تعييرات أصـدقائه وتقريعاتهم ومثاليهم وأورد على الصديق كل نوع من حيله فكذلك جرى على الـكنيسة الحيل المخترعة منه بالأصـدقاء بالأعداء بذوى المراتب بالمحسوبين فى الجنـدية بالـكرمين بالأسقفية بالاغتيالات الـكثيرة المختلفة لأنه اذا احتال بهذه الحيل الجزيل مبلغهـا على الـكنيسة ليس مستعجبا انه لم يزعزعها فقط لـكنه جعلها مع ذلك أبهى مما كانت حسنا لأنها ما علمت جميع النـاس من هـذا التعليم فى ذلك الحين الذى لم يصل فيه اليها أذية مثل ما علمت جميع المسكونة بصـبرها بضـبط هواها وباحتمالهـا المحن وباحتقـارها متعـة الدنيـا وباحتسابها المجد العالى كلا شىء وباعراضها عن الاكرام وبظفرها على الموت وبتهاونهـا بهذه الحياة وبقبولها عن التنازل عن الأصـدقاء وباستعدادها لميتـات مختلفـة وبظفرهـا على السيوف وباعتبارها أن حظوظ الدنيـا كلها البينة وتـكريماتها وشرفهـا واقتدارها ونعمتها حقيرة أحقر من أزهار الربيع وهـذه التعاليم ليس يظهرها واحـد فقط ولا اثنـان وثلاثة لـكن شعبها كله يظهرها ليس بألفاظه فقط لكن بأفعاله ايضا بالنوائب التىقاسوها بالمحن التى قهروها بالمغتالين عليهم الذين غلبوهم

بافعال صبرهم التى احتملوها مع النوائب التى قاسوها ولم تكن الأفعال الا صلب كمثل حجر الماس وما هزوا أسلحة ولا اثاروا حروبا ولا مدوا قسيا ولا اطلقوا نشابا لكن كل واحد منهم توشح بستور الصبر بحب الترتيب والوداعة والشجاعة وبمقاساتهم الضيم اخزوا الذين فعلوه بهم من كثرة تزايد الشر بهم .

الباب الرابع والعشرون

« فى أن الذين ينحرفون عن الشريعة بهذه الأفعال سيجازون بعدل هناك ليس فى القضاء المرهوب بل وههنا أيضا وهو الخاتمة »

والآن هؤلاء المحتملون الأصفياء يستعملون وجههم بهيا والحاظهم حرة ومجاهرة يحتجز وصفها ويدخلون الى السوق ويعتدون فى منازلهم فيبادرون الى القداس والذين عملوا هذه الأعمال المنكرة يحتجبون فى كل صنف من صنوف حيلهم التى أوردوها قد حازوا فى باطنهم فطنتهم خبيثة وهم مرتعدون مرتاعون يجولون وهذه الحال حالهم وكما ان الوحوش المتعسر موتها بعد أن تضرب ضربة أولى وثانية من شانها أن تصادم السهام باشد نهضتها فتدفع الضربة على ذاتها اشد من الجراحات الحاصلة فيها اذ تقتبل الجراحات فى أحشائها بأعيانها والأمواج اذا ما صادمت الصخرة بأشد نهضتها انما تغيب بعد ذلك بانكسارها وتحللها فكذلك هؤلاء الأشقياء بالأفعال التى يغتالون فيها انما يحفرون الهوتات لذواتهم أكثر ممايحفرونها لأناس غيرهم لأن الذين يصابون من غيرهم يصيرون عن اهل المسكونة مفضلين وتراهم يمدحونهم ويذيعون فضلهم ويكللونهم عن الذين يعرفونهم والذين لا يعرفونهم الذين يعرفون افعال الصابرين من افعالهم والذين يتحققونها من أخبارهم والذين يتوجعون لهم جزيل عددهم والذين يجاهدون معهم والذين يبتهلون لهم بالحظوظ الصالحة كلهم والذين يغتالون هم على غيرهم يصير الذين يمقتونهم جزيلا عددهم واكثر من ذلك كثيرا الذين يوبخونهم الذين يحزنونهم ويخجلونهم الذين يلعنونهم لعنات جزيلا عددها الذين يتمنون أن يروهم فى عقوبة وتعذيب فهذه مكاره تعرض لهم ههنا فاما المكاره التى تحل بهم هنالك فأى قول يبينها لأنه ان كان من يشكك انسانا واحدا ويفتنه قد حكم عليه بتعذيب هذا تقديره بلغ الى أن يكون أوفق له أن يعلق فى عنقه حجر رحى ويغرق فى البحر فتفهموا كم

مقـابلات عادلة يقـابل هؤلاء المشككين بها فى مجلس القضـاء ذلك المرهوب حينئـذ كم عـذاب يتكبدونه افرادا لأنهم رجفوا اهل المسكونة كلها وأقلقوا كنائس جزيل عـددها والذين أصـابهم من أولئـك ما أصـابهم سيقامون مع الشهداء مع الرسل مع الرجال الصـناديد العـالى محلهم يلمعون ثوبا من الفضـائل التى احكموها من أوجاع محنهم من اكليلهم من رايات ظفرهم من كثرة مجاهدتهم وسيصير أولئـك معاقبين ولا يمكنهم أن يخلوهم من التعذيب ولو من خيرات الأبرار نالوا ضربات جزيل عددها من أولئـك الصبورين يقدمون توسلا لأجلهم لـكنه ما ينفعهم ذلك نفعـا لأنه ان كان من اعرض عن فقير واحـد هو لعـازر قاسى عـذابا جزيلا تقـديره وما رزق من التعزية ولا صنفا فما الذى يقاسيه هؤلاء وقـد طردوا اناسا هـذا مبلغ كثرتهم وضغطوا وغموا اقواما جزيلا عددهم وازعجوهم فهـذه الأقـوال كلها اذا تفكرتم فيها وجمعتم من الـكتب الشريفة الفاظا مشابهة لها كانت لكم سورا حصينا وتجعلون هـذه الأخبـار أدوية نافعة للمرضى أيضـا الأشد مرضا · فقفوا اذا متمكنين عادمين أن تكونوا متزعزعين متوقعين الحظوظ الصـالحة المخزونة لـكم لأن قـد خزنت لـكم على كل حال بـلازم الضرورة مكافأة ليست تقـدر باتعـابكم لـكنها لـكثرة سموها ممتنع وصـفها ذلك أن الهنا المتعطف علينا قـد حرص بجعل مكافأته ومجازاته بتفضيل كثير للذين اختاروا أن يؤمنوا به ويعملوا عملا فريدا صـالحا وأن يتكلموا كلاما محمودا فهذه المـكافأة نؤمن أن نرزقها بيسوع المسيح ربنا الذى له مع الابن والروح القدس المجد والقدرة والعظمة من الآن وكل أوان والى دهر الداهرين آمين ·

المقـــالة الرابعـــة

« فى أن قراءة الـكتب المقدسة المفيدة وانها تصير ممارسها غير مساد عليه ومصان من الأمور المضرة وأن الرسل هو اسم يتضمن وظـائف كثيرة وأن الرسل يمتلكون عزما وسلطانا لأعظم جدا من سلطان الملوك والرؤساء ثم يذكر أخيرا فى هذه المقالة حال المستنيرين جديدا » ٠

وقد ترجمها من اللغة اليونانية الى العربية الأب الفاضل اثنـاسيوس البطريرك الانطاكى وهى موجودة فى المجلد الثامن ٠

اننى حين أشاهد ضعف نيتى فيعرونى الكلل والملل واحجم عن مخاطبة مثل هذا الجم الغفير ولـكننى لـما أبصر شوقكم واصبابكم العـديم الشبع فاننى أنهض عزمى بشوق وحرص وأجول فى ميدان التعليم ٠ وأنتم وان كان ضميركم صخريا لـكن بحرصكم واشتياقكم تصيرونه أخف من الأجنحة وكما أن الحيوانات تجعل لها أوكارا فى الشتاء وتدخل فى ثقوب الصخور ومتى شعرت باينـاع الربيع فانها تغـادر ذلك المـكان وتعـاشر بقيـة الحيوانات وترتكض معهم بطرا كذلك أنفسكم التى هى محجوبة فى أوكار ضعف الضمير فانها اذا ما شاهدت اشتياق محبتكم تغـادر الأوكار وتشترك معكم وترتكض صحبتكم وترتع فى رياض الـكتب الروحية الالهية فى فردوس السطورات لأن الرياض الروحيـة وفردوس الـكتب الالهية هى تلاوتها ٠ لأن فردوس هذا النعيم لأفضل من ذلك كثيرا من كون هـذا الفـردوس ليس هو فى الأرض لـكنه مغروس من الله فى نفوس المؤمنين فهـذا الفردوس ليس فى عدن ولا وضعه فى المشارق وحيزه فى مكان واحد لـكنه بسطه فى الأرض بأسرها وبثـه فى كافة أقطار المسكونة وأنه بسط الـكتب فى جميع المسكونة ٠ اسمع ماذا يهتف النبى قائلا فى كل الأرض خرج منطقهم وفى أقطار المسكونة انبث كلامهم لأنك ان مضيت يا هـذا نحو الهنود الذين تحويهم الشمس وتناظرهم أولا وان سرت نحو أوكيانوس أو نحو جزائر انكلترا أو مضيت الى جهـة البحر الأسود أو ان اتجهت الى نواحى الشمال فانك تسمع الجميع يتلون الـكتب ويتفلسفون فيها بلغات متباينة ولـكن الايمان ليس متباين أما اللغات فمتنوعة ولـكن الضمير متفق فاللغمات تغيرت وأما طريق حسن العبادة فلم يتغير فلسانهم وان كان أعجميا لـكنهم بالعزم يتفلسفون فيلحنون بالألفاظ وأما طريق عبادتهم فحسن وجميل أشاهـدت مقدار هذا الفردوس كيف أنه ممتد الى كافة أقطار المسكونة ؟ فهنـا لا يوجد أفعى من كون هذا الموضع

عرى من كافة الدبابات ومستور بنعمة الروح وان هـذا الفردوس يتضمن ينبوعا نظير ذاك وانه ليس ينقسم الى اربعة ولـكنه اصل وبدء لربوات من الأنهر وليس ان الدجلة والفرات ولا نيل مصر ولا عنكبس الذى فى الهنـد ولـكن هـذا الينبوع يفيض عددا لا يحصى من الأنهر فمن هو الـذى يقول هكذا هو الله الذى منحنا هذه الأنهر لأن يقول كالمـكتوب « انها تجرى من بطنه انهار ماء حى » ٠

أرايت انهم ليسوا بأربعة أنهر لـكن هـذا الينبـوع يفيض من الأنهـر ما لا عد له وهـذا الينبوع ليس بعجيب فى طبعـه وكثرته فقط وليس يفيض ماء بل مواهب روحيـة وهـذا الينبوع ينقسم على كل نفس من المؤمنين وهو غير منفصل ويتفرق موزعا ولا يفرغ يجرى ويلبث كما هو وهو كامل لدى الـكافة وتام فى كل أحد فهذه هى كمية مواهب الروح اتشاء ان تدرك كيف ان طبع المياه لا يضاهى هذه بل هى افضل واعجب منها فاسمع اذا ماذا يقول المسيح للسامرية لـكى تعلم تفـاقم هذا الينبوع « ان الماء الذى أعطيه للمؤمن يكون فيه عين ماء فائض بحياة دائمة » ولم يقل متدفقـا فقـط بل ودائم الفيض لـكى يظهر لنـا فيـه غزارة الجريان غير المتقطع وليميزه عن المـاء الذى من عادته أن يتـدفق بسرعة دائما وفى كل مكان فهذا لاتستطيع ان تصنعه بقيـة الينـابيع وهى داخل الأرض ولـكنها اذا انغلت قسرا من الزيادة فانها تظهر وتجرى خارجا ولأجل انه اراد ان يظهر تفاوت المـاءين فقال الدايم جريه ٠ اتشاء ان تعلم طبيعـة هذا فاعرفه من الافادة لأنه ليس بنـافع للحياة الحاضرة لـكنه مفيد للحياة الدائمة ٠

فاذا سبيلنا أن نتدبر فى هذا الفردوس ولا نتزحزح عن هذا الينبوع لئلا يصيبنا ما أصـاب آدم ونسقط من الفردوس ٠ بل ونلبث داخله ولانقبل مشورة مبيدة ولا طغيان الشيطان ونستمر على هذبذ هذه الـكتب ومن هنا نمتلك صيانة جزيلة ومثلما أن الذين يجلسون فى شدة الحر عند الينـابيع يستنشقون برطوبة الهـواء ويرشون على وجوههم متواترا لئـلا يعـروهم الاختناق ويشفون غليل الظمأ المستحوذ عليهم بسهولة ٠

كما ان هذا العلاج لا يحصل الا من دنوهم الى الينبوع هكذا حال من يكون مواظبـا على ينبوع الـكتب الالهية فانهولو ابصر هيجان سعير الشهوة الردية ليستحثة فبهذه المياه يخمد من نفسه ذاك اللهيب بسهولة وان استشاط قلبـه بلهيب حدة الغضب وكان يغلى كقـدر محماة ٠ فانه بوضـعه عليـه

يسيرا من هـذا المـاء يخمد غليانه بسرعة ويطفىء لهيبه · وان قراءة الكتب تختطف الأفـكار الشريرة من النفس كاختطافها من وسط السعير فلهذا لما لحظ داود الملك والنبى العظيم فوائد قراءة الـكتب والاصغاء اليها بتواتر شبه دوام تلاوتها ومثلها بالغرسة المتـأصلة على مجارى الميـاه الدائمـة طراوتها فقال هكذا « طوبى للرجل الذى لم يسلك فى مشورة الأشرار وفى طريق الخطاة لم يقف وفى مجلس المستهزئين لم يجلس لـكن فى ناموس الرب مسرته وفى ناموسه يلهج نهارا وليلا فيكون كشجرة مغروسـة عنـد مجارى الميـاه » وكما أن العود المغروس على مجارى الميـاه الواصل اليهـا يكون مرتويا فى كل وقت ولا يعروه شىء من زعازع الرياح ولا يخـاف حر شعاع الهجيرة ولا يجزع من لفحات سخونة الهواء لأن الطراوة التى ضمنه كافية أن ترطبـه وتطرد عنه للحين شـدة لهيب حـرارة الشمس الخارجـة هكذا والنفس الحاصلة على مجارى مياه الـكتب الالهيـة وشاربه منها على الدوام وحاوية ضمنها رطوبة الروح فانها تصير غير مقهورة ولا فساد عليها من كافة النوايب التى توافيها كالشتائم والأمراض والـكسل وما يضـاهى ذلك من المصائب ولو استحوذت عليها شرور السكونة بأسرها فانها تخمـد عنها سعير الآلام بسهولة وتتملك التغـذية الـكافية من تلاوة الـكتب لأن لا عظم المجـد ولا ثقل الرياسة ولا حضـور الأصـدقاء ولا شىء آخر من الأمور البشرية يستطيع أن يعترى النفس المغمومة هكذا مثل قراءة الـكتب الالهيـة ولمـاذا ؟ لأن تلك الأشـياء فانيـة زمنيـة فلذلك كانت تعزيتها وقتية زائلة ·

وأما تلاوة الـكتب فهى مخاطبـة لله ومتى أراد البـارى تعـالى أن يعزى من هو فى الأحزان فماذا الذى يستطيع من الحاضرات أن يجعله فى محنة ؟ فلنصغ اذا الى القراءة ليس هاتين الساعتين فقط لأن السماع الساذج لا يكفينا للصيانة والحرص بل كل أحد منا اذا ذهب الى منزله فليتخذ الكتب فى يديه ويتـأمل معانى المقولات وبهذه السجية يستمد المنفعة الـكافية من الـكتب لأن ذاك العود المغروس على مجارى المياه لم يثبت هناك ساعة واحدة او ساعتين فقط بل ليلا ونهارا فلهـذا يفرع الأوراق ويبرز الأثمار ولو لم يسقه أحد من البشر · ولمـاذا لـكونه مغـروسا على المجـارى ويجتـذب الرطوبات من أصوله ويرسل المنفعـة الى جميع البـدن كأنه من مسام ما وعلى هـذا المنوال من يمارس تلاوة الـكتب على الدوام ويلبث عند المجارى ولو يتفق له من يشرحها وانه بواسطة القراءة المتواترة ويجتذب المنفعة كأنها

من جراثيم ما فكذلك نحسن اذا ما شاهدنا انزعاجكم ونوائبكم وهمكم الجزيلة فنورد لكم معانى الكتب بمودة ولطف وسكون لنصير تعبير تذكرة المقولات ثابتا فيكم وكما أن الوابل الغزير اذا انسكب على وجه الأرض فانه يحجب لخارجها فقط ولاينفع العمق اصلا وأما اذا انحدر بهدوء قليلا قليلا فانه ليس يبلغ الى درجة الأرض فقط ولكنه ينبعث ايضا الى اعماقها كأنه من شرايين خفية ويفعم بواطنها رطوبة ويصيرها حسنة القبول لاتباع الأثمار ·

هكذا نحن نقدم لنفوسكم هذا المطير الروحانى يسيرا يسيرا بهدوء وسكون لأن سحابات الكتب فروحية هى · وأما الأقوال والمعانى فانها أفضل من مطر غزير ولذا كم السبب نقدم لكم المطر الروحانى شيئا فشيئا لكيما يبلغ ما أقوله الى اقاصى نفوسكم ومع ذلك فهذا يوم رابع لنا جالسين فى جملة هذا المقال ولم نتعده بعد والأفضل لنا ان نحتفر أولا محلا صغيرا ثم ننحدر قليلا قليلا الى العمق ونجد الكنز المطلوب من اننا نبحث فى اسطح أراض كثيرة باطلا وعبثا · وانى لعارف بأن كثيرين منكم يتذمرون على لأجل اسهابى فى الخطاب واما أنا لا تعنينى دمدمتهم بل تهمنى منفعتكم فقط فالذين يقتدرون منكم ان يسعوا سعيا أشد اسراعا من الاخوة الواهنى القوى فليصبروا عليهم ويحتملون ضعفهم لأنهم لا يستطيعون البلوغ الى نشاط أولئك ولهذا يقول بولس انه لا يجب أن نحث الضعفاء قبل الوقت نحن الأقوياء اذ ليس لهم حينئذ قدرة على ذلك ولكن نحن الأقوياء يجب علينا أن نحتمل ضعف الذين لا قوة لهم ونحن لا يهمنا التظاهر جملة كافية بل اننا تعنينا منفعتكم فقط فلهذا نسهب فى بواطن المعانى وانى قد كنت قلت لكم فى اليوم الأول انه لا يجب أن نسمم معانى المسطورات على الاطلاق حين تكلمنا فى عنوان الهيكل وأوضحنا حكمة بولس ذاك الغريب الذى كان واقفا فى مشاحنة الأعداء وقدمها الى من يلوز به ففى هذا انتهى تعليمنا بأسره فى اليوم الأول · ثم بعده فى اليوم الثانى التمسنا أن نعرف من هو كاتب هذا الكتاب فوجدنا بنعمة الله انه لوقا الانجيلى وأوضحنا لكم الموضوع بأدلة كثيرة بعضها بالبرهان وبعضها باعمق من ذلك لأننى قد علمت بأن كثيرين من الذين سمعوا المقالات الأخيرة لم يتبعوها فلا نمل من هذا القبيل ولا نتهاون بالتجاسر على التعمق بأدق منها ·

أما المعانى الظاهرة فى للسذج القاصر فهمهم أما العميقة فهى أنفع للذين يتأملون بحذاقة لأن الفائدة يجب أن تكون متلونة الأنواع بما أن شهوة المدعوين هى متنوعة ففى اليوم الأول تكلمنا لأجل العنوان وفى اليوم

الثانى من أجل الذى كتب الكتاب وفى اليوم الثالث بالأمس تكلمنا عن بدء الكتاب وأوضحنا ما يوافق السامعين والبعض عن الأفعال والبعض عن العجائب والبعض عن السيرة والبعض عن الآيات والعلامات والقوات وكم مقدار كل واحد منها وكيف أن البعض يسبب بذاته ملكا وأن الذى لا يمتلك معونة من الأفعال فيطرح خارج الأبواب فيجب اليوم أن نتكلم ضرورة على بقية العنوان ونظهر ما هو معنى اسم الرسل لأن هذا الاسم ليس بسائج لكنه منذ البدء هو تكنية عظيمة للتقدم الروحانى للتقدم العلوى لكن انهضوا الكون ولو وجد فى العالم رياسات كثيرة الا أنها ليست بهذا المقام نفسه لأن البعض أعظم والبعض أحقر فأولهم رأس عسس المدينة والأعلى منه المتقدم على القبيلة وبعده رئيس أعظم ثم مقدم الجيوش الذى هو الوالى وتوجد رياسة أعلا من هؤلاء وهى رئاسةالوزارة وكما أنجميع هذهالرياسات ليست فى مقام واحد وهكذا الرياسات الروحية فكثيرة هى وليست جميعها بوظيفة واحدة بل أعظم الوظائف بأسرها هى الرياسة فيجب علينا أن نقتادكم من الأمور الحسية الى المعانى العقلية ٠

لأن والمسيح هكذا صنع لما فاوض من أجل الروح فانه ذكر ماء وقال « من يشرب هذا الماء يعطش أيضا فأما من يشرب من الماء الذى أعطيه أنا لا يعطش الى الأبد » أرأيته كيف من الأشياء الحسية يقتاد الى العقلية ونحن فنصنع هكذا فاننا نصعد من أسفل الى العلا لكيما نصير المقال أشد ايضاحا ولذلك لما تكلمنا عن الرياسة لم نذكر رياسة روحية لكن حسية لكى من هذه نقتادكم الى تلك أسمعتم كيف عددنا لكم الرياسات الوقتية وكيف أن البعض أعظم والبعض أحقر وكيف أن رياسة الوزارة موضوعة كهام ورأس للكافة فلننظر اذا فى الرياسات الروحية فالرياسة الروحية هى بدء النبوة وتوجد رياسة أخرى وهى انجيلية وهى للراعى وهى للمعلم وهى مواهب الأشفية هى ترجمة اللغات فجميع هذه الأسماء تخص المواهب وأما أمور الرياسات والسلطات فالنبى رئيس هو وعندنا أن الروح الذى يحركه رئيس هو وعندنا أن الراعى أو المعلم هو رئيس روحانى ولكن أعظم هؤلاء جميعهم الرياسة الرسولية لأن الرسول امام كافة هؤلاء ٠

وكما أن الوزير فى الرياسات الحسية فهكذا والرسول له التقدم فى الروحانيات وأن قيل من أين يتضح ذلك فلنسمع تعداد بولس للرياسات لأنه يضع فى المحل الأعلى الرياسة الرسولية حيث يقول ان الله قد رتب قوما فى الكنيسة فأولا رسلا ثانيا أنبياء ثالثا معلمين ورعاة ثم مواهب الشفاءأرأيت

هام الرياسة الرسولية اشهدت كيف أن الرسول جالس فى العلا وليس أحد يفوقه لأنه يقول أولا رسلا ثانيا أنبياء ثالثا معلمين ورعاة ثم مواهب الشفاء معاضد النصر سياسات أجنـاس اللغات · وليست الرياسة الرسولية تفوق الجميع فقط ولـكنها هى الأساس والقاعدة وكما أن الرأس موضوع فى أعلا جميع البدن وليس هو بدء الجسد ورياسته فقط بل واصله لـكافة الأعصاب الملتفة والمحيطة بالبـدن منشأها منه وهى تنبت من الرأس وتقتبل موازرة الروح وهكذا تتـدبر جميع الحيوانات فعلى هـذا النمط هى الرسالة لأنها ليست موضوعة كرياسة وسلطان بقيـة المواهب فقط بل وتتضمن فى ذاتها كافة الأصول فالنبى لا يستطيع أن يكون رسولا وأما الرسول فبالضرورة هو نبى ويمتلك مواهب الشفاء وأجنـاس اللغات وترجمتها · فلهـذا هو أصل وبدء المواهب · ولاثبـات ذلك فأقدم لـكم بولس شاهدا ولـكن ضروريا لنا أن نقـدم أولا · أيما هى أجناس اللغـات لاظهار الروح وبما أنهم فى ذلك الحق كانوا ضعفاء ولم يكن يمكنهم أن يشاهدوا المواهب العقلية بأعين الجسد · لذلك كانوا يعطون حسية لاظهار العقلية وللحين كان المعتمد ينطق بلغته ولغة الهنـد والفرس والأعاجم حتى يعلم غير المؤمنين أنه قد أخذ الروح القدس · وكانت الاشارة حسية · أعنى الصـوت · لأنهم كانوا يسمعونهـا بحواس الجسد وأما نعمة الروح العقلية غير الملحوظة · هى التى كانت تجعل الاشارة الحسية ظاهرة للـكافة وهذه الآية فكانت تدعى أجناس اللغات · فانظر ان لسانا واحدا طبيعيا كان ينطق بلغات متنوعة بواسطة النعمة فـكنت تبصر انسانا واحدا يمتلك بالعدد بواسطة أنواع النعم أفواها متنوعة · وألسن متباينة فلننظر اذا كيف أن الرسول يمتلك هذه الموهبة وبقيتها أجمع · لأنه يقول هكذا « اننى أفضل من جميعكم أتكلم باللغـات » أشاهـدت كيف أنه يحوى أجناس اللغات وليس هو فقط لـكن وجميع المؤمنين لأنه لم يقل « أننى أتكلم باللغات فقط » · بل « وأفضل من جميعكم اتكلم باللغات » وأما النبوة التى كانت له فيوضحها من هذا الـكلام قائلا هكذا « أما الروح فيقول جهرا ان فى الأزمنة الأخيرة تنصب أوقات صعبة » فقوله فى الأزمنة الأخيرة هى « نبوة » · وهذا ظاهر للـكافة كذا وقوله أيضـا « اعلموا أنه فى الأيام الأخيرة تنصب أوقات صعبة » ثم قوله « وأيضا أقول لـكم يقول الرب أننا نحن الأحياء الذين نبقى الى مجىء الرب لن نسبق الراقدين » وهذه نبوة أيضا · أشاهدت كيف أنه يمتلك النبوة وأجناس اللغات ؟

الجزء الثالث ـ مقالات للقديس يوحنا فم الذهب

المقـــالة الأولى : المسيح هو اله ٣٣٧

المقـــالة الثانيـــة : الروح القـــدس ٣٧٢

المقـــالة الثالثـــة : العجز عن الادراك ٣٨٥

المقـــالة الرابعـــة : قراءة الـــكتب المقدسة ٤٤١